obeikandl.com

obeikandl.com

ومازالت الأشواك فى جسدى

رواية

د / نادية البرعى

ليليت للنشر والتوزيع

obeikandl.com

د/ نادية البرعي

رقم الايداع / 21093/ 2013 ط1

الترقيم الدولى / ا - 19 - 5311 - 977 - 978

غلاف / رضوي عادل

حقوق الطبع محفوظة لدى الناشر

ليليت للنشر والتوزيع

الإشراف العام / إيمان سعيد

المراسلات :17 ش محمد أمين شهيب

مصطفى كامل إسكندرية

من ش أبوقير- أمام كلية رياض أطفال

ت : 035232044

موبايل : 01206301212

lilettepublishing@gmail.com

obeikandi.com

إلى كل قلب جريح .. لم يسأله أيٌّ أحدٍ ..

ما الذي يشفي جراحك

نادية البرعي

obeikandl.com

obeikandl.com

_ 1 _

obeikandl.com

حين يبدأ الصيف يحمل معه النسمات الدافئة، أو الساخنة أحيانًا والرطبة أحيانًا أخرى .. نهرع إلى البحر، على شاطيء الأنفوشي أو ستانلي أو العجمي، وربما جميع الشواطيء الأخرى بالإسكندرية؛ نتفق جميعًا أنا وأولاد وبنات خالاتي وعماتي على الذهاب مبكرًا.. قد أسبقهم بعد الفجر مباشرة أصطحب معي أخي الأصغر مني، ننصب الشماسي ونرص كراسي البحر نفرش الملاءات الكبيرة لتجلس عليها النساء كبيرات السن، نخلع ملابسنا ونلقي بأنفسنا بين الأمواج، وعند الظهر تلحق بنا أمي والقريبات والبنات والأولاد، يحمل الجميع الطعام وزجاجات المياه الباردة، والعصائر والفاكهة نتناول طعام الغداء في صخب شديد .

ألمحه يقف من بعيد.. ينظرني.. يبتسم، يصفق لي حين أرفع جسدي عاليًا ثم أغطس داخل موجة عاتية، يقْدِم إليَّ سريعًا.. يلتقطني، فأنا لا أحسن السباحة جيدًا وسط الأمواج، حاول كثيرًا أن يعلمني، لكنني فشلت، ينادي عليه أصدقاؤه المنتظرون السباق الكبير إلى الجزيرة القابعة وسط البحر، الممتلئة بالقواقع والجنشد[1].

لا أقدر على السباحة معهم فأنتظره.. أنظر هنا وهناك، يختفي كالسمكة تحت الماء يسبح ويسبح.. أملّ الانتظار.. يقرصني الجوع.. أخرج إلى الشاطيء.. تناولني أمي بضعة لقيمات أتصبر بها حتى يعود الجميع من الجزيرة

1 قواقع بحرية شوكية تحتوي على مواد هلامية تفتح القوقعة بسكين صغير ويؤكل ما بداخلها، وهو لذيذ الطعم

obeikandi.com

حين بلغت الثالثة عشرة منعتني أمي من نزول البحر أثناء النهار؛ تحول جسدي إلى شيء آخر أنا وبنات عماتي وخالاتي فنحن نقترب في العمر من بعضنا البعض.. تحولنا إلى أعواد مرمرية، ناهدة، لينة، واعدة بصفات أنثوية صارخة، غضبنا جميعًا وحاولنا دفع الخالات والعمات لإقناع أمي بالعدول عن قرارها، لكنها رفضت بإصرار وبإلحاحنا ودموعنا.. اقترحت أمي أن نذهب إلى البحر ونسبح كما نشاء في الفجر قبل ظهور الشمس فإذا أشرقت.. علينا الخروج من البحر فورًا والعودة إلى منازلنا أو الجلوس على شاطئ البحر.. انزعجنا جميعًا.. أنلقي بأجسادنا وسط الأمواج ليلاً؟
البحر مخيف بالليل ومياهه باردة.. ضحكت أمي:
لا خوف ولا رهبة سأكون معكن.. نسبح في الرابعة صباحًا ونعود إلى بيوتنا مع أول ضوء، ما زلن خائفات إلا أنا.. فرحت كثيرًا.. لا يهم النهار أو الليل.. بالنسبة لي يكفيني أني في أحضان البحر.. حرصت أمي على عدم إخبار الشباب بموعدنا مع البحر أو مكاننا فبيوتنا القريبة من الشاطيء تسمح لنا بالرجوع وتغيير ملابسنا والعودة إلى الشاطيء إذا أردنا.
تعوّد البحر أن يحتوينا قبل الفجر بساعة ونصف؛ برودة الماء تختفي حين يكتسب الجسد حرارة الماء.. تتعالى ضحكاتنا، نستبق، نغطس ونسبح تحت الماء.. أحبت جميع الفتيات السباحة معي في هذا الوقت..
ألمحه من بعيد، الفتى الطويل الأسمر، يتسلل في الظلام، يتبعنا، يحرسنا، لا يراه أحد أو يعلم بوجوده، إلا أنا..لم تكد نتيجة الإعدادية تظهر حتى زارنا الفتى الأسمر ذو العينين العميقتين المبتسم دائمًا، ابن خالتي الذي أحبني في صمت وأحاطني برعايته وحنانه المتسلل إلى قلبي بغير إفصاح ولا

ضجيج، جاء حزينًا فسوف يتركنا ويرحل.. إلى أين؟ إلى الجبل الأصفر، تم تجنيده وسيرحل فجرًا.. اقترب من أمي، همس لها:

خالتي.. أريد أن أتزوج من صفاء..

ضحكت أمي:

ما زالت صغيرة.. أمامها مشوار طويل في التعليم..

أخطبها فقط، بعد انتهاء فترة التجنيد سأعمل مع أبي، وعدني بوظيفة ممتازة في شركة..

أشارت لي أمي، ارتفع صوتها الذي كان هامسًا مشيرة إليه:

هل تتزوجين من هذا الفتى الجميل؟

أعجزني الخجل عن الإجابة، أردفت أمي وهي تربت على كتفه:

السكوت علامة الرضا.

أريد أن أسمعها منها.. موافقة أم أنني لا أعجبك؟

نظرت إليه.. تلاقت أعيننا.. ,لكن عينيه تخترقان كل شيء وتصلان إلى قلبي، تحركت شفتاي، لكنني هرعت إلى المطبخ لأعد الشاي، لحق بي، أمسك بيدي اليمنى، قبّلها..

أريد شربات.. شربات الورد الأحمر بلون خديك وشفتيك..

لحقت بنا أمي:

أجّل هذا الكلام حتى الزواج.. ممنوع المغازلة إلا في بيتكما.

رحل عني، يزورنا أثناء أجازاته المتباعدة.. يهمس في أذني حين نلتقي:

أحبك.. يا زوجة المستقبل

لا أجيب، خفقات قلبي هي التي تجيب..

obeikandl.com

"بل أنا التي أهواك، وأنتظرك على أحرّ من الجمر"
في أخر زيارة، أهداني عقدًا من اللؤلؤ، أحاط به عنقي.. ضحكت أمي:
أهذه شبكتها؟
لا.. الشبكة أكبر بكثير.. إنه فقط، للذكرى.
استأذن من أبي وأمي أن نتمشى قليلاً على شاطئ البحر، يتعانق كفَّانا، نتوقف لحظة ننظر إلى بعيد، فالشمس توشك أن تغيب، أنتفض لحظة سقوط قرص الشمس خلف الأفق، يخترق الليل غلالات السماء، يكسوها، يفترشها حتى تضاء المصابيح وتبرق النجوم فيأخذني من يدي، عائدين كل منا يحلم.. هو يحلم بي أمًا لأولاده.. زوجة تنتظره فاتحة ذراعيها تضع شفتيها الدافئتين على خده فيشعر بالبهجة وبأنه موجود لأنها هنا، معه.. أما هي فترى الفستان الأبيض وطرحته المطرزة بحبات قلبها المتوهج بحبه وتسمع أمها تزغرد، وتحلم بليلة الزفاف.
ارتحل كثيرًا مع كتيبته، أثناء التدريبات سقط على عنقه لوح كبير من الخشب؛ انكسرت فقرات العنق، قطع الحبل الشوكي، لم يعد إلينا.. أحزان خالتي التي ارتدت السواد حتى موتها .. فاقت كل حد..
اختفى الفتى الأسمر الطويل، ما زالت ضحكاته ترن في أذني، ما زال حنانه يحتويني، ينام في قلبي هانئًا وما زالت عيناه العميقتان تحرساني دائمًا.

obeikandl.com

obeikandl.com

أصبحت أجلس وحدي كثيرًا.. لا أضيء المصباح، أجلس في الظلام مغلقة العينين، أراه داخل جفوني يتحرك في مرح، يجري، يضحك، يلعب بالكرة، يقذفها نحوي فأعيدها إليه.. يهرول إلى البحر قاذفًا جسده وسط الأمواج أخاف عليه، أتابعه مبتسمة، يختفي عن ناظريّ فلا أضحك من كل قلبي إلا حين يعود حاملاً سلة الخوص تمتلئ بالجاندوفلي والجلاجولا2، يلقي بها في حجري قائلاً في مزاح جميل:

تفضلي.. مهرك يا عروسة..

يضحك الجميع، وخاصةً خالتي التي تقبلني قائلة:

أكيد أحلى عروسة بل هي ست البنات.

كان يعرف كل الأطعمة التي أحبها فيأتيني بها، والأماكن التي كنت أحب الذهاب إليها فيأخذني معه، عشقنا البحر معًا، وفي إحدى النزهات الشاطئية جلست مسترخية على المقعد القماش أتأمل الأمواج، فإذا بكفيه الدافئتين توضعان على عيني وهمسة رائعة في أذني اليمنى "أحبك"، أمسكت بكفيه، قبلتهما، جذبني برفق، نهضت، سرنا معًا وهو مازال قابضًا على كفي بحنو شديد، وقفنا أمام الماء.. تركنا الأمواج تداعب أقدامنا.

آه.. آه، وألف آه.. يوجعني قلبي.. لا تكفي دموع العالم حزنًا عليه.. يحادثني ويبثني مشاعره الصادقة الجميلة.. الحب الطاهر البريء قد ذهب.. كنت فقط أنظر لعينيه أسبح فيهما، وأعرف ماذا يريد أن يقول..

انزعجت أمي بشدة من كثرة جلوسي وحدي ومصباح الغرفة غير مضاء.

---

2 أصداف ومحارات

obeikandi.com

obeikandl.com

أغمس أقلامي في أحزاني وأكتب، قد تأتي الكلمات حمراء بلون الدم الطازج الأحمر الساخن اللزج، وقد تأتي سوداء بلون القهر والقلب المحترق، وحين تتجمد المشاعر قد تكون الكلمات باردة بيضاء بلون الثلج لكنها لا تكون أبدًا ناصعة إلا حين تكون كلمات صادقة..

إذا كنت أنت متفتحًا للحياة بطاقاتك النضرة العطرة، وبدفء القلب المترقب للعطاء، ثم تجد نفسك لا تتلقى إلا الخواء، الفراغ من كل شيء، أو الصعود إلى أعلى مراحل التمني والأمل ثم الهبوط والوقوع في أعمق أعماق الدنيا، هكذا، حين تبحث عن الرحمة، المشاركة، العطاء؛ فلا تجد بين يديك سوى قبض الريح.

حين بلغت العاشرة من عمري، وفي العطلة المدرسية الصيفية، فوجئت بأمي توقظني مبكرة من نومي، اعتدنا في الصيف أن نتأخر في النوم بعض الشيء ، لكنني في هذا اليوم وجدت جارتنا القادمة من الريف بصحبة زوجها الباشكاتب بإحدى الإدارات الحكومية تجلس بجانبي ثم تمسك بي وتجلسني القرفصاء بين فخذيها ثم تضع كفها اليمنى على عيني، وبعد لحظات أحسست بألم شديد أسفل بطني اضطرني للصراخ والمقاومة، والمرأة تمسكني بكل قوتها تقيِّد حركتي، وأمي واقفة تنظرني بإشفاق.. ثم شعرت بقطعة قماش لزجة تُوضع بين فخذيّ، حملتني أمي والمرأة والدماء تسيل مني.. وضعتاني في الفراش، وذهبت أمي للمطبخ تطهو الدجاج الذي تم تنظيفه بسرعة بمعرفة الجارة الريفية..

في المساء عرفت أن الداية أم حسين قد أجرت لي عملية الختان.. لم أرها ولم أعرف معنى ما فعلت بي، بعد عدة أيام شُفيت جراحي وعُدت إلى

اللعب بعرائسي ولعبي كما كنت أفعل من قبل.
بعد أربع سنوات، نضج جسدي، تغيّر كل شيء، أصبحت أشعر بما يحدث من حولي، عقلي يعمل دائمًا، أفكر كثيرًا في كل شيء، عيناي لامعتان، زرقاوان، شعري الكستنائي يغطي كتفي فيضفي على جسدي منظرًا أخاذًا ينضح بالأنوثة.
لاحظت أن أمي تتابعني بعينيها دائمًا أكثر من باقي شقيقاتي، تنظر لي من الأمام والخلف، تكاد عيناها تخترقان جسدي وتصلان إلى أحشائي وعظامي، لم أعرف معنى نظراتها، حاولت التقرب إلى أمي أكثر، أن أصادقها، أمازحها، أقص عليها كل ما يحدث في المدرسة، وكثيرًا ما كانت تسمعني بغير اهتمام، مشغولة هي دائمًا، بل كثيرة الانشغال، بالبيت، الأخوات، وأخي الوحيد المدلل، والأهل والجيران.
في إحدى الليالي، وبعد حمامي الليلي في الصيف القائظ، جاءت أمي إلى غرفتي.. نظرت لى طويلاً، اقتربت مني، ثم قالت:
غدًا تزورنا جارتنا أم حسن، وستأتي الممرضة التي ساعدتني في الولادة الأخيرة لزيارتنا.
.ولماذا الممرضة؟
لم تجبني أمي على سؤالي، خرجت مسرعة؛ توجست شرًا.. لماذا تحضر هذه الممرضة وأمي ليست حاملاً؟، بل إن أخي الصغير لم يبلغ عامه الأول إلا منذ أيام قليلة، حاولت أن أجد سببًا لحضور هذه الممرضة وهذه الجارة التي لا أنساها أبدًا ,لكن .. غلبني النوم.
في العاشرة صباحًا، أيقظتني أمي، أمسكت بي من يدي، قبضت عليها

بشدة، وكأنها تخشى أن أنفلت منها، أتت أم حسن جارتنا مسرعة، شدتني من ذراعي أوقعتني على الفراش، وبأقصى سرعة جلست خلفي وأحاطت ساقيّ بساقيها بكل قوتها شابكة ذراعيّ مع بعضهما البعض، لم أعرف أو أستوعب ما يُفعل بي، ولماذا؟ حاولت الصراخ.. لم يخرج صوتي فقد أتت الممرضة، حين رأيتها تحمل في يدها مقصًا طبيًا انطلق صوتي، وبدأت في البكاء؛ حاولت أمي إسكاتي.. دمائي تسيل، وآلام رهيبة في نصفي الأسفل، أغشيّ عليّ، ولمّا أفقت رأيت أمي واقفة بجانب فراشي، ملاءة السرير ممتلئة بالدم الأحمر القاني، ساقاي باهتتان بلون الموت، قلبي يرتجف بسرعة شديدة.. علمت وقتها، ووقتها فقط، أن أمي استدعت هذه الممرضة لعمل ختان لي مرة أخرى..!!

استأصلت الممرضة أجزاءًا كبيرة من جهازي التناسلي الخارجي، أُصبت بنزيف شديد.. قامت الممرضة بخياطة الأجزاء النازفة بإبرة خياطة كيفما استطاعت حتى توقف النزيف.. انصرفت الممرضة تاركة إياي كالجثة الهامدة على الفراش. نظرتُ إلى أمي ذاهلة:

ماذا فعلتم بي.. ولماذا؟!

لا شئ.. وجدتُّ أن الأجزاء التي أُزيلت منك وأنت في العاشرة قد نمت وكبرت مرة أخرى وأصبحت في حجم يستلزم إزالتها مرة أخرى..

كيف عرفتِ..؟

شاهدتك مرة في الحمام وأنت تتحممين.

أتنظرين علينا من ثقب الباب؟

لم تُجب على سؤالي، وانصرفت وهي غاضبة؛ "كيف أحدثها بهذه

الطريقة؟".. سمعتها تقول:

- بنات أخر الزمان.. لم نكن نجرؤ على الكلام مع أمهاتنا بهذه الطريقة.

في صباح اليوم التالي، دخلت أمي غرفتي لتطمئن عليّ، رفعت الغطاء، شاهدت الحُفاض.. توقف النزيف.. غطتني برفق وبكلتا يديها أمسكت بكتفيّ، ضغطت بقوة ناظرة في عينيّ قائلة:

الحرية.. هي أن تتحرري من شهوتك..

تركتني وخرجت لتعد طعام الإفطار.. تلفتُّ حولي، تساءلت:

"أين هي شهوتي التي تتحدث عنها أمي بمثل هذه الطريقة؟ وما معنى كلمة شهوة؟ أنا أحب الطعام الجيد وخاصة الفواكه، فهل هذه هي الشهوة؟ هل إذا أحببت أن آكل برتقالة هل هذه هي الشهوة؟ حين اشتهى آدم التفاحة، أعطتها له حواء؛ فخرج من الجنة.. هل تُخرجنا الشهوة من الدنيا أم من الآخرة؟!"

أردت أن أسأل أمي عما تقصده، احتبس الكلام في حلقي؛ أمي قوية وأبي ترك لها تربيتنا كما تريد، وأنا مازلت صغيرة، ضعيفة، آلامي شديدة، بكائي صامت يهز رئتيّ.. يُمزق حنجرتي.. يقُضُّ مضجعي.. أصبحت بكَّاءة، تتراقص حبات الندى داخل عينيّ حتى تنهمر كالفيضان تحفر أخاديدها على خدي.. لا أنتحب إلا ليلاً وحدي.. قد لا أعرف لماذا أبكي؟.. أتمنى أن تفهمني أمي.. أن تسألني لماذا أبكي؟.. أن تعرف كيف أشعر.. كيف أفكر؟.. وبماذا أحس؟

حين رحل الفتى الطويل الأسمر، رحلت سفينتي وعلى متنها البحار الوحيد الذي رسا في قلبي.. ترحل كل الأشياء الجميلة، الضحكات،

الخفقات البريئة الطاهرة التي لم تعرف من قبل معنى الخوف.

obeikandl.com

obeikandl.com

هذا الإنسان، الكائن البشري الذي تمتزج فيه كل الأشياء: الروح، الجسد، النفس، صُنع من أديم الأرض الذي احترق، من طين من حمأٍ مسنون، ونفخ فيه الله من روحه، أعطاه القناعة، لكنه لم يعرف معناها ولا جدواها؛ فأنت لا تقنع أبدًا، ولا ترضى ولا تشبع.

تزوجت أمي وهي في السادسة عشرة من عمرها.. حين بلغت السابعة والثلاثين كانت قد ملأت البيت بتسع: ولد واحد هو الأصغر وثمان من البنات الجميلات، منَّا السمراء، والبيضاء، والخمرية اللون، وحتى الشقراء، أما أختي الصغرى فكانت بنفسجية العينين؛ فكما قالت لي أمي، أن أمها كانت أيضًا بنفسجية العينين.. أختي الكبرى عيناها سوداوان أما التي قبلي فعيناها خضراوان وشعرها ذهبي، أما أنا فزرقاء العينين وشعري كستنائي، وأنا الثالثة في ترتيب البنات.

لم تكن الغسالات الأوتوماتيك قد اختُرعت، ولا المكنسات الكهربائية، ولا الخلاطات التي تصنع العصائر.. كانت أم إبراهيم امرأة طويلة عريضة قادمة من رشيد مع أبويها، كانت أمها تخدم جدتي، وكبرت أم إبراهيم التي لم تتزوج، ولا أعرف لماذا أطلقوا عليها هذا الاسم ولا من هو إبراهيم هذا، كل ما أعرفه أنها كانت تأتي كل أسبوع مرتين للقيام بشئون البيت، تضع طشت الغسيل في الحمام الكبير وتوقد وابور الجاز وتملأ الفنطاس الكبير بالماء، تضعه فوق الوابور حتى إذا سخن الماء واقترب من درجة الغليان جلست أم ابراهيم على كرسي الحمام وبدأت في الغسيل الذي تنقعه أمي في الليلة السابقة في طشت آخر، ثم تنظف البيت بعد نشر الغسيل كله فوق السطح، ثم تحصل على أجرتها وبعض الطعام والحلوى، وتعود لبيتها

في المساء، علمت فيما بعد أنها العائل الوحيد لأمها وأبيها عم ابراهيم الطباخ الذي أقعده المرض.

كنت قد بلغت الخامسة عشرة حين ماتت أم إبراهيم فجأة، منعت أمي أي امرأة أخرى أن تحل محلها..

عندي بنات كبيرات عفيات يستطعن خدمة البيت، ولو فقط في العطلة الصيفية.

قسّمت أمي أعمال المنزل بيني وبين شقيقتي الأكبر مني، حتى أثناء الدراسة، وحللت أنا مكان أم إبراهيم على طشت الغسيل حتى أتانا أبي بغسالة كهربائية من ماركة "تايجر" فكأنما أعتقني، وقال لي أنه ظلَّ يسأل أصدقاءه عامًا كاملاً عن مصنع هذه الغسالات حتى يبتاع واحدة لنا، عندما شاهد يديَّ تتقرحان من الغسيل.. لا أعرف لماذا أنا التي تسيل دمائي دائمًا؟.. شكرت أبي كثيرًا ودعوت لمن اخترع هذه الغسالة، وأصبحت أجمع غسيل الأسبوع كله وأقف على الغسالة إلى منتصف اليوم.

حصلت على الثانوية العامة، أحببت أن ألتحق بكلية التجارة، لكن أمي صممت على إلحاقي بكلية العلوم؛ متمنية أن أصبح عالِمةً في الفيزياء أو الكيمياء.. أمي تعرف القراءة والكتابة.. قرأتْ كتاباً عن مدام كوري، وتوسمت فيّ الذكاء والعبقرية وتمنت أن أصبح مثلها..

أنصاع دائمًا لرغبات أمي لأني أحبها، لكنني لم أنس أبدًا ختانها لي مرتين بدون أي سبب، أصبحت أُغلق باب الحمام جيدًا، وأضع البشكير الكبير على بابه حتى لا تتمكن من التلصص عليّ..!!

obeikandl.com

وقفت في معمل الكيمياء، وفي يدي أنبوبة الاختبار، فوجئت به يسألني إن كنت بدأت التجربة أم لا.. خجلي يجعل صوتي خفيضًا، ثم إنه معيد الكيمياء الذي يساعدنا في إجراء التجارب وتسجيل نتائجها.. لا أدري لماذا يتودد إليّ كثيرًا، ألمحه خلسة ينظر لي من بعيد، يتابعني بعينيه، يطاردني بمشاعره التي لا أعرف لها تفسيرًا، فمنذ أن أغلقت قلبي في وجه الطارقين عقب وفاة الفتى الأسمر الطويل، وأنا لا أعطي لقلبي أي فرصة للتفكير في أي رجل آخر؛ فقد كان الراحل الحبيب هو رجلي الأول والذي ما زلت أشعر أنه معي دائمًا ولا تغيب عني عيناه الدافئتان، لكنه بملاحقته لي ـ غير المباشرة ـ اجتذبني فأصبحت أنا التي أتابعه بعينيّ وأحزن كثيرًا إذا تغيَّب عن المعمل.

وضع أمامي، دون أن يلحظه زملاءي الموجودون بالمعمل، ورقة صغيرة كتب عليها:

"أريد مقابلتك خارج الكلية لأمر ضروري"

وبسرعة أخفيت الورقة في جيب البالطو الأبيض الذي أرتديه، أخفيت مشاعري داخل الأبخرة المتصاعدة من أنبوبة الاختبار.

انتهى اليوم الدراسي، انصرفت متعجلة.. لم أعرف كيف أرد عليه ولا كيف أقابله.. أتيت للجامعة مغلقة القلب، حزينة الفؤاد، لا أشعر أن هناك من يعوِّضني عن الحبيب الأول الذي فقدته.

بعد عدة أيام قابلني المعيد في إحدى ردهات الكلية، استوقفني:

لماذا لم تردي على الورقة التي وضعتها أمامك؟

اعذرني أنا لا أقابل أي أحد..

o b e i k a n d l . c o m

أرجوكِ.. نتقابل مرة واحدة فقط، لم أتوسل لفتاة من قبل، مرة واحدة فقط..
اتفقنا على الموعد والمكان. حين جلست في كافيتريا سينما أمير كان قلبي يخفق بشدة:
"لماذا أتيت؟ هل أحبه حقاً؟".
جلس على المقعد المجاور لي يتأملني، يتحدث في كل شيء، قال أنني جميلة وجذابة وهادئة و... و.... كنت أنصت له وأمامي صورة الفتى الطويل الأسمر مبتسمًا كعادته دائمًا.
تعددت لقاءاتنا، أصبح لا يطيق فراقي، طلب أن يأتي لزيارتنا لمقابلة أبي، أمهلته حتى العطلة الصيفية، كنت أعرف اسمه الأول فقط، سألته عن اسمه كاملاً، قال:
"هشام زكي جرجس"
فقدت النطق، تعثرت الأحرف على لساني. أنا، "صفاء وهبى عبد الله"، ابنة الحاج "وهبى محمد عبد الله"، الذي أدى فريضة الحج عدة مرات.
ربما ظن هو أنني مسيحية، ربما لم يلحظ اسمي على كراسة المعمل التي أسجل فيها التجارب.. تاهت كلماتي، وهو ينظر لي مبتسمًا، قال إن العطلة الصيفية ستأتي بعد عدة شهور وهو متعجل.. لم أستطع الكلام، تعللت بصداع مفاجئ وانصرفت.
أغلقت حجرتي عليّ، وانهمرت دموعي ساخنة، ملتهبة، أأفترق عن هذا الشاب الطيب، الحنون متدفق المشاعر الذي يحبني بصدق وإخلاص؟..
أأقول له أنه من المستحيل ارتباطنا، ماذا أفعل؟!

obeikandl.com

فتحت أمي باب الغرفة، تعجبت لحزني وبكائي.. حدثتها بكل شيء، ربّتت على كتفي وقبّلتني لتواسيني في محنتي الثانية:

ابتعدي عنه وأخبريه أنكما مختلفان، سيحترق فؤادكما دون فائدة، فلا داعي لهذا العذاب.

obeikandl.com

obeikandl.com

خرجت أنا وعايدة "زكي"، زميلتي في الكلية، من المنزل الذي نقيم فيه معًا في حي محرم بك، قريبًا من كلية العلوم التي ندرس بها.. نجحت كل مجموعتي وسننتقل جميعًا إلى السنة الثانية..

سألتني عايدة فجأة ونحن نعبر الشارع:

أتصدقين ما يذيعونه في الراديو؟

ماذا؟

أسقطنا عشرين طائرة.. أسقطنا ثلاثين طائرة.. نقترب من منتصف النهار فيقول أحمد سعيد صارخًا من إذاعة صوت العرب: أسقطنا سبعين طائرة.. هل تصدقين؟

ولم لا؟.. جيشنا قوي، وسنمسح إسرائيل من على الخريطة كما قال "عبد الناصر".

نظرت إليّ، حدّقت في عينيّ، والقلق ينطق في عينيها..

ابن خالتي "يحيى" في الجبهة، أنا قلقة عليه جدًا..

حاولت أن أسرِّي عنها..

لا تقلقي.. سيعود منتصرًا إن شاء الله..

"رأيته أمامي، الشاب الطويل الأسمر، ينظر إليَّ، يمد يده محاولاً احتوائي، دخلت في أحضانه، سألته:

طالت غيبتك.. أعوام وأعوام وأنا أنتظرك..

ضمَّني بقوة.. قبَّل شفتيَّ وعنقي ورأسي."

هيه.. أين ذهبت؟

أخذتني "عايدة" من غفوتي، أو من إطلالتي عليه حين صاحت:

obeikandl.com

هيا.. سنذهب إلى المستشفى الأميري..
لماذا؟ هل تعب "عم زكي" مرة أخرى؟.. أشرت لي في التليفون أن أرتدي ملابسي لنخرج, لكنك لم تخبريني إلى أين سنذهب ولماذا؟
فتحوا باب التطوع..
تطوع لأي شيء؟
لإسعاف الجرحى والمرضى.. يعني نتعلم كيف نضمّد الجروح، أو نعطي حقنة أو نضع جبيرة لكسر بسيط أو حتى نسقي الجرحى ونطعمهم..
أسنذهب إلى سيناء؟
لا.. أتظنين أن الحرب في سيناء فقط؟ ربما شملت مصر كلها.. ربما أتوا إلينا هنا، أو اقتحموا منازلنا..
تعشمي خيرًا..
أسرعنا الخطى حتى وصلنا إلى المستشفى الأميري، دخلنا من الباب الحديدي الكبير وتوجهنا إلى مكتب التطوع، سجّلنا كل البيانات في الاستمارات التي وضعها الموظف المختص أمامنا، طلب منّا أن نتوجه إلى قسم الأشعة فهناك محاضرة الآن سوف يلقيها أحد المعيدين بهذا القسم.
وقف أمام جهاز الأشعة يضع صورة بعد أخرى ممسكًا بعصاة معدنية يشير بها إلى مواضع الكسور، ويشرح بطريقة بسيطة على الدمية الموضوعة أمامنا على المنضدة كيف نضع الجبائر على العظام المكسورة.. بهرنا الدكتور "حسن" بإلقائه السهل وتيسيره للاصطلاحات الطبية الصعبة علينا. فجأة.. فُتح باب القاعة الصغيرة التي نجلس فيها، دخل زميل للدكتور "حسن"، أسرّ له ببعض كلمات، اكفهر وجه الدكتور "حسن"، استأذن

obeikandi.com

منا للحظات، أغلق الباب خلفه، غاب دقائق ثم دخل علينا وقد احمرّت عيناه كأنه كان يبكي، وقف مذهولاً وكأنه نسى ما سيقول.. تذكّر أنه يقف أمامنا، لم يستطع استكمال المحاضرة، اعتذر قائلاً:

ممكن أن تعودوا بعد يومين لاستكمال الدرس، نشكركم على مبادرتكم.

خرجنا ذاهلين، أنا و"عايدة" وفتيات أخريات: "ماذا يحدث؟"

في الشارع صمت شديد، وجوم على الوجوه، سألت "عايدة":

ماذا حدث؟.. كان الدكتور "حسن" يلقي المحاضرة مبتسمًا يبدو على وجهه التفاؤل، خرج وعاد إلينا بوجه آخر..

لا أعرف.. ربما حدث شيءٌ على الجبهة..

أشعر بالعطش الشديد..

هذا محل عصير قصب، تعالي نشرب كوبًا.. إنني أحبه كثيرًا

دخلنا المحل، طلبنا العصير، كل عمال المحل لا يتكلمون.. صمت مطبق..

سألت الرجل الذي يصب العصير.

حدث؟.. الناس يسيرون في الشوارع وكأن على رؤوسهم الطير.

انهزمنا.. إسرائيل هزمتنا.. بدأنا ننسحب..

ماذا؟..

قلتها صارخة.. سقط كوب العصير من يدي، انفجرنا جميعًا في البكاء تعلقت قلوبنا وعيوننا بوجهه الأسمر الحزين حين أطل علينا في التلفاز، فوجئنا بأنه يعترف بالخطأ ويعتذر للشعب ويتنحى، انعقدت ألسنتنا..

ماذا حدث في مصر؟!.. إسرائيل تزغرد.. أما من أحد يفهمنا ماذا حدث؟ نظرت إلى أبي وأمي وإخوتي.. لا أحد يتكلم، القهر الذي نشعر به جميعًا

obeikandi.com

فاض من العيون دموعًا وحزنًا وشقهات أمي الحزينة على أبنائنا الجنود وعلى الجيش الكبير الذي هزم في ست ساعات. أخيرًا نطق أبي قائلاً ..
لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.. الطف بنا يارب.
تركنا ودخل حجرته يصلي.. سمعته يتمتم بنفس الكلمات من بين دموعه المكتومة، أما أنا فقد انفجرت حنجرتي:
كيف يتنحى؟ كيف يتركنا؟ ومن سيصلح ما فسد؟
وسقطت مغشيًا عليّ..

***

في الشقة المجاورة، جلس الجميع ساهمين، لكن "عايدة" كانت تتابع المذياع، تحاول أن تلتقط أي خبر عما يحدث في القناة وسيناء.. "يحيى" مازلنا لا نعرف عنه أي شئ؟!

***

لم يعد الجيش مرة واحدة بل عاد فرادى، تاهوا في صحراء سيناء كما تاهت قلوبنا بحثًا عنهم، الأهل والأقارب، الأمهات والأخوات، جميعًا ننتظر، يتجرع الجميع الصبر والخوف مما هو آت.. أين الضباط الكبار؟ أين القادة؟! عاد الجنود المساكين مهلهلي الملابس، البزات العسكرية مهترئة.. الذقون لم تحلق، الأجساد متسخة بغبار الطريق، الوجوه كالحة، العيون حزينة، والنظرات عابرة لا تنظر إلا إلى المجهول.
أما المواطنون فكانوا في أشد حالات التوتر، الحنق الشديد، والكراهية للقوات المسلحة، كيف هُزموا؟.. كيف ضُربت طائراتنا على أرضها؟ ضربنا ستين طائرة.. سبعين.. ثمانين.. الخديعة.. كيف خدعونا ببيانات كاذبة؟

obeikandl.com

أصحاب الحكمة والبصيرة لم يصدقوا كل هذه البيانات، لكن الشعب الطيب المسالم كان يزغرد ويصفق ويوزع الشربات والحلوى في الطرقات..

أين ذهب أبناء هذا الشعب؟!

***

كنت أزور "عايدة" وأسرتها يوميًا، أطمئن عليهم، وأسأل عن ابن خالتها "يحيى" حتى قالت لي ذات يوم وفي صوتها كل الأسى:

لقد عاد، لكنه مريض جدًا..

اصطحبتني إلى بيت خالتها في الشارع المجاور لشارعنا، أدخلتني حجرته، شاهدته وقد علقت المحاليل وأكياس الدم.. كان في حالة فظيعة من الضعف والهزال والشحوب، رفض أبوه احتجازه في أي مستشفى للعلاج، أتى بالأطباء، كنا ننتظر شفاءه بفارغ الصبر ليحكي لنا؛ لنسمع منه كيف هرب مع بعض زملائه سيرًا على الأقدام حتى وصلوا للسويس، وكيف كانت الدوريات الإسرائيلية تتعقبهم وتقتل من تحصل عليه، وكيف قُتِل الكثير من الضباط والجنود وتم إتلاف معداتنا وإحراقها وأُسِرَ المصابون، وقُتل الجرحى الذين أجبروهم على حفر قبورهم بأيديهم..

عاد "عبد الناصر" بعد احتشاد الجماهير في كل ميادين مصر، كان لابد من استيعاب الدرس وبدأنا في جمع ما تبقى لنا لإعادة بناء الجيش..

وبدأت حرب الاستنزاف.

كنا نسعد بأخبار "عبد الناصر" وجولاته وتفقده لتحديث الجيش، التعب يبدو على وجهه؛ فهو مصاب بمرض السكري، أحسست أن "عبد الناصر" يموت منه كل يوم بعضًا من جسده, لكني كنت أخشى على أهم شئ

يملكه،قلبه وإرادته، وحب الشعب.
في قلوب المصريين شئ عجيب، فهم يصفحون بسرعة، ينسون أو يتناسون، عبر التاريخ يلقون بالنكات، يتبادلون المرح، حتى وإن استبد بهم القلق، يقتلون القلق بالضحكات، لكن ضحكاتنا خجلت من البوح في هذا اليوم حين توارت لما توقف الإرسال من الإذاعة المصرية، وفوجئ المستمعون بصوت "أنور السادات" ينعي عبد الناصر للأمة العربية.. كانت المجازر تجرى على قدم وساق في مذبحة أيلول الأسود بين الفلسطينيين والملك حسين ملك الأردن، وعقد "عبد الناصر" مؤتمراً لنزع فتيل الأزمة دعا إليه كل ملوك ورؤساء الدول العربية واجتمعوا جميعًا.. يستقبل هذا ويودع ذاك حتى ودعنا ذات مساء.. توقفت قلوب المصريين، لم نعرف ماذا نقول؟!
كنت قد تخرجت، وعملت مدرسة للكيمياء والفيزياء بإحدى المدارس الثانوية القريبة من بيتنا؛ فتقديري المتميز لم يبعدني عن بيتي كثيرًا..
خرجت الجموع الغفيرة تشيّع عبد الناصر إلى مثواه الأخير.. كف قلبه عن الأنين والوجع.. لقد مات منذ عام 1967م، عام النكسة، كان يتحرك كجسد فقط، عيناه تائهتان، آلام ساقيه تظهر في عضلات وجهه، يعمل في هدوء حتى رحل في هدوء..
"لمن الملك اليوم، لله الواحد القهار"
هل صنع "عبد الناصر" الهزيمة، أم صُنعت له، ودفع هو الثمن؟ هل قتل؟.. هللت أمريكا وإسرائيل وشرب الصهاينة نخب دفن عبد الناصر حيا في 67.

تولى "السادات" رئاسة الجمهورية، وبدأنا سنوات الحسم، كان دائم التفقد للقوات المنتشرة في مواجهة العدو، ويستعد لإنهاء احتلال سيناء وعودة قناة السويس، وعودة أهالي مدن القناة الذين تم إجلاؤهم إلى مختلف محافظات الجمهورية، أما الشعب المصري فقد كانت كل أحاديثه في كل مكان عن إجلاء الصهاينة من بلادنا، وما من أسرة إلا ولها ضابط أو جندي أو مجند في الجيش، وكان الجنود يشاهدون الإسرائيليات على الجانب الآخر من القناة عاريات يلوحن ويستفززن الجنود والضباط ، ولكن في المساء تجرى عمليات فدائية، يدفعون ثمنها غاليًا، والشعب في انتظار لحظة العبور.

ob.elkandl.com

obeikandl.com

"عبرنا الهزيمة.. يا مصر عظيمة"..

ترددت هذه الأغنية كثيرًا، خفق لها قلب الشعب المصري، وكأنهم جميعًا على اختلاف توجهاتهم وآرائهم ورغباتهم قد اجتمعوا على قلب رجل واحد، ورفع المصري رأسه عاليًا بعد أن أخفضها ست سنوات، وانهار خط بارليف، بخراطيم المياه بسواعد سمراء مصرية قوية، وفوجئ الصهاينة بالمصريين يعبرون القناة، في وضح النهار، صائمين، مهللين، أرواحهم على أكفهم، واجهوا الموت غير عابئين، انكسر حاجز الخوف.. قد يصبر المصري كثيرًا، يحتمل ويحتمل، لكنه يتحدى كل صعب، قد يتعثر في خطواته، لكنه ينهض، ينفض عنه غبار الصبر ويتقدم، لم يشتك أي مواطن مصري من رداءة رغيف الخبز أو صعوبة الحصول على أنبوبة بوتاجاز، أو الوقوف ساعات طويلة في طوابير ممتدة امام الجمعيات التعاونية الاستهلاكية للحصول على السلع الضرورية: دجاج، كيس أرز، أو كيس سكر.. صبر الشعب وتحمل، كل شئ للمجهود الحربي، حتى الغناء، انطلقت سيدة الغناء العربي، جامعةً العرب على الإنصات لها في الخميس الأول من كل شهر، أم كلثوم، في العواصم العربية والأوروبية تقيم حفلاتها لصالح المجهود الحربي.. تحملنا حتى سمعنا كلمة "العبور" فهل نعيش بقية حياتنا بمعنى العبور؟.. هل نعبر إلى النمو والتقدم والعلم؟..

ذهب "يحيى" زوج صديقتي عايدة مع الجيش، عبر معهم، استشهد في اليوم الرابع من المعركة، حمله زملاؤه إلى مقره الأخير، رمال سيناء، إلى جانب زملائه الآخرين.. لم تميز القذائف القاتلة بين المسلم والمسيحي، اغتالت الجميع، تركوا الدنيا فرحين بما أنجزوا وبما آتاهم الله، فقد أدوا ما

عليهم، وزيادة.

كانت عايدة حاملاً في طفلها الثاني؛ فقد تزوجا فورًا بعد تخرجها، أما "يحيى" الذي يكبرها بخمس سنوات فقد كان في سلاح المدرعات ضابطًا برتبة رائد، حديث الترقية، لم تبك عايدة حين تلقت النبأ، لكنها حزنت أن "يحيى" لن يكون موجودًا لحظة ميلاد الطفل الثاني، طفلها الأول "عيسى" أما الثاني فكان طفلة جميلة، أسمتها "مريم"، رفضت "عايدة" الزواج بعد "يحيى"، وعاشت تربي أولادها.

أما أنا فقد أصرّت أمي على تزويجي من أحد أقاربها.

obeikandl.com

obeikandl.com

تقدم لخطبتي ابن عمي، رفضته متعللة بفارق السن؛ فأنا أكبر منه بعامين، كما أنه لا يحمل إلا شهادة الثانوية التجارية ويعمل في محلات أبيه التاجر. أصبحت أرفض كل من يتقدم لي أثناء دراستي الجامعية، لم يغضب مني أبي.. كان يحبني كثيرًا ولا يرفض لي أي طلب.. أمي تتهلل، وترقبني من بعيد.. أحسست أنها تدبر أمرًا لا أستطيع تخمينه.. تسهر معي أثناء المذاكرة.. تضع أمامي طبقًا شهيًا من الشطائر التي تعلم أنني أحبها، كوبًا من اللبن، فنجانًا من الشاي، بعضًا من عصير البرتقال، لا تفعل هذا مع أخواتي، ولا مع أخي الوحيد، ربما تظن أن مذاكرتي أصعب من أخواتي، فكلهن أحببن الدراسة في الكليات النظرية أما أنا فأدرس المعادلات الكيميائية والموضوعات الفيزيائية الصعبة، حتى اجتزت امتحانات السنة النهائية بنجاح، وأقام لي أبي حفلاً كبيرًا بمناسبة تخرجي.. دعا أقاربه وأقارب أمي.. الصدفة، والصدفة فقط هي التي جعلته يلتقي بي، أحد أقارب أمي، يكبرني بأكثر من عشر سنوات أو ربما خمس عشرة سنة.. كان غائبًا في الخليج، استدعوه حين مرضت أمه بعد وفاة الأب والابن الأكبر في حادث سيارة مروع؛ أصيبت بشلل نصفي، وابنتها الوحيدة في صحبة زوجها في أقصى الصعيد، حضر هو، استقال من عمله كمحاسب بإحدى الشركات الكبرى، وعمل في شركة مقاولات معروفة في مدينتنا، واستمر في رعاية أمه حتى توفاها الله.. لم نكن نراه كثيرًا، وحتى إذا تقابلنا لم نكن نتجاذب أطراف الحديث لكنه في هذه الليلة ظل يلاحقني، يتبعني بنظراته الثاقبة، يتفحصني، وكأنه يراني لأول مرة.. بنظراته أحسست أنني عروس البحر التي خرجت لتوها من وسط الأمواج ليلتقطها هو، وهو فقط دون البشر، وهي البعيدة كل

البعد عن مجالاته المغناطيسية الضعيفة، فلا هو وسيم، ولا ثري، فقد أنفق معظم مدخراته على علاج أمه وإذا تحدث فلا ثقافة ولا علم.. تخرج من الجامعة منذ أعوام طويلة، لم يفكر في الدراسات العليا، لكنه فكر في السفر، رفض تعيينه بأي مصلحة أو مؤسسة حكومية، وبحث عن المال في الخليج، لكن ترحاله إلى تركيا واليونان للتنزه والفرجة على بلاد العالم ونساء العالم، وحبه الشديد للبنات وبنات لبنان، لم يعطه الفرصة لادخار أموال كثيرة، لكن أمه قبل وفاتها وتقديرًا لرعايته لها، منحته المنزل الذي يقيم فيه الآن وحده، لا زوجة، لا أولاد، حياته فراغ في فراغ. في اليوم التالي أخبرتني أمي برغبته في الارتباط بي.. أشحت بوجهي رافضة، التفتُّ إلى أبي الذي رد ممتعضًا:

كبير عليها..

لكنه مقتدر..لا يملك إلا البيت الذي يقيم فيه، ومرتبه..

البيت ليس بقليل..

البنت صغيرة، وجميلة، متعلمة ومثقفة، تستحق من هو أفضل منه..

المهم موافقتك..

موافقتها هي أيضًا.. المهم هي..

تمسكت برفضي، واستمر إلحاح أمي، آزرني أبي، لكنها أطلقت إلحاحها في أذنيه، تهربتُ من مواجهة أمي. دعته على الغداء، ثم على العشاء، ثم لحفل خطبة أختي التي تصغرني، واستمرت لشهور تحاول إقناعي، حتى

أتى أبي إلى غرفتي وأخبرني أنها تُكثر من البكاء في الليل:

أخاف أن تدعو عليكِ..

لا.. لن يطاوعها قلبها، كيف تدعو على فلذة كبدها؟

ارضِ أمك..

أتزوج رغمًا عني؟

- لا.. اقبلي الخطبة، ثم بعد عدة شهور تعللي بأي سبب واتركيه، وأنا سأدعمك..

obeikandl.com

obeikandl.com

حين جلسنا معًا بعد حفل الخطبة، لم أشعر بأي ارتياح داخلي نحو هذا الرجل، عيناه الضيقتان تتفحصان جسدي، أنفه الضخم يستولي على كل الهواء الذي في الغرفة، شفتاه الغليظتان ترغبان في التهامي.. ينظر إلى صدري وساقيَّ نظرات مقززة. بعد شهرين طلب عقد القران، احتميت بأبي.. استغثت بوعده.. أجّل أبي عقد القران، توفي بعدها بأسبوع واحد بأزمة قلبية؛ خسر صفقة تجارية، لم يتحمل قلبه المتعب.. اكتشفت أن أبي كان مصابًا بارتفاع شديد في ضغط الدم وهبوط في القلب واحتقان في الرئة.. بكيت أبي، وكأن العالم كله قد مات..

بعد عدة شهور فاتحت أمي في الانفصال عن خطيبي الذي أصبح يأتي لبيتنا في كل وقت وفي أي وقت ويحاول إيجاد أي سبب لنخرج معًا أو ينفرد بي في أي مكان، صرخت أمي:

- انفصال..

ضربت بكف يدها على صدرها مستنكرة طلبي:

- لا.. الرجل يزورنا والناس يشاهدونه داخلاً وخارجًا.. أنتن ثمان من البنات، متى تتزوجن، أبوكم مات بسكتة قلبية، هل تريدن أن أموت أنا الأخرى بالكمد والحسرة؟.. أريد الاطمئنان عليكن قبل أن أترك الدنيا، أخوكم الوحيد صغير يريد من يرعاه، فكيف إذا رحلت أنا؟.. ستتزوجي هذا الرجل، لا تقتليني بأفكارك الفارغة.

إلى من أشكو؟.. أكره أن أتزوج ممن لا أطيقه.. حاولت بكل طاقتي أن أحبه، بلا فائدة، أتلمس طريقي إليه, لكن تصرفاته تبعدني وتلقي بي خارج مشاعره، ثم ماذا أفعل إن تزوجته ولم أحتمله أيضًا؛ أنا بشر، إنسان، لي

مشاعري واحتياجاتي العاطفية والعصبية والنفسية، خلقنا الله من أديم الأرض نحمل كل المشاعر: الحب، الكراهية، القبول، الرفض، الفرح، الحزن. وفي عملي أشعر بانجذابي لأحد زملائي المدرسين.. شاب مهذب، متميز في عمله، يحب الجميع.. نتفق في أشياء كثيرة، يتوحد قلبي معه حين نتناقش في أي أمر من أمور الحياة، نتفاهم، قد تختلف وجهات نظرنا, لكننا لا نغضب، يحاول إرضائي، يتقرب إليّ، يسأل عني إذا مرضت، يعمل بدلاً مني في الحصص الاحتياطية إذا لاحظ أني متعبة.. ألمح لصديقتي المقربة إليّ أنه يريد أن يتقدم لطلب يدي، لولا وفاة أبي التي جعلته ينتظر انتهاء فترة الحداد، كنت أخلع خاتم الخطبة من إصبعي أثناء تواجدي في أي مكان خارج البيت كراهية لهذا الزواج فلم يعرف زميلي أنني مخطوبة خاصة, وأنه حديث العمل معنا بعد نقله من مرسى مطروح إلى مدينتنا.. تمنيت الارتباط به، أتمزق بين رغباتي ورغبات أمي، وبين أحوالنا المادية التي بدأت في الانحدار بعد وفاة أبي..

وافقت يائسة على الزواج من هذا الرجل حتى لا أغضب أمي؛ فقد وعدها بالتكفل بكل نفقات العرس وبالمساعدة في تجهيز البيت. تنفست أمي الصعداء.

obeikandl.com

obeikandl.com

ما إن علم زميلي بزواجي، حتى طلب نقله إلى مدينة أخرى؛ ظن أنني خدعته..تألم قلبي لفراقه، ما زلت أحتفظ في داخلي ببعض من كلماته، حتى ابتسامته الرقيقة ونظرات الحب في عينيه مازالت تسكن قلبي.

حين تضيق عليّ الدنيا أتحدث إليه، أسأله الإجابة كما كنت أفعل حين تستعصي عليّ أي مشكلة فيزيائية، أسمع صوته الهادئ الحنون من وقت لآخر فتدمع عيناي.

في ليلة الزفاف كنت كالعصفور الضعيف، وكان هو كقط متوحش متحفز ينقض عليَّ لافتراسي وتقطيعي وإسالة دمي..

انهار فجأة ولم يكمل ما بدأه، جلس مولياً ظهره لي، وحين سألته عمّا ألمَّ به لم يجب على سؤالي.. تعلل بالإجهاد، لكنه في كل المحاولات التالية فشل، ثم علمت أنه كان يصطحب فتيات الليل أثناء نوم أمه، ويفعل ما يريد، وقد يتناول بعضًا من الخمر أو المخدرات ليزيد من انتشائه.. هكذا، بمنتهى السهولة ينجح في الحرام، ويفشل في الحلال..

تحب أمي أن تطمئن علينا من وقت لآخر؛ فأقول لها:

كله تمام..

ولماذا تأخر الحمل؟

لا تقلقي.. كل شيء يأتي بإذن الله.. ألم تعلمينا هذه الكلمات؟

إلى من أشكو، وأنا عذراء لمدة ستة شهور.. ذهبت إلى صديقة لي من أيام الدراسة بالمدرسة الثانوية، طبيبة، سألتها وقصصت عليها ما عرفته من شئون زوجي.. قالت:

كل الشباب يفعل بجسده ما يريد قبل الزواج، لكنه بعد الزواج يستقيم..

المهم ألا يعود إلى سيرته السابقة..
لا تعميم، فليس كل الشباب يفعل ذلك، أخي الوحيد يقترب من سن الشباب ولا يفعل أو حتى يفكر في الجنس الآخر.
ربما هو مشغول بالمذاكرة..
وأيضًا علمتنا أمي الخوف من الله.. كان أبي رجلاً طيبًا يخشى الله في كل شئ قال لنا ذات يوم: "لا تخافوا من البشر فالإنسان لا يقدر على شيء.. كله بأمر الله، هو الذي يعلم سرنا وجهرنا وهو معنا في السر والعلن ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور.. خافوا من ربكم فقط فهو القادر على كل شيء"
ألم تطلبي من زوجك الذهاب إلى طبيب؟
طلبت وطلبت.. ستة شهور وأنا أطلب، وهو يتهرب ويماطل، وأمي تلح وتسأل؛ تريد أن تفرح بأحفادها قبل الرحيل ..
أليس لها أحفاد؟
لها لأخواتي الأخريات.. لكن زوجي قريبها وهي قلقة عليه.
حاولي الذهاب معه إلى طبيب ربما كان السبب عندك أيضًا.. هل تزوجتما عن حب؟
حاولي أن تحبيه.. حين يشعر الرجل بنفور زوجته يحدث ما أنتما عليه الآن.

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

أخذني زوجي، عنوة؛ فأصبت بنزيف شديد وتمزقات وسحجات داخلية وخارجية.. نقلني إلى المستشفى وتم علاجي.. منعه الطبيب من الاقتراب مني لمدة شهر.. اعتقدت أمي أنه إجهاض، أقامت معي عدة أيام، وتتابعت زيارات أخواتي لخدمتي..

يتحرك الإنسان، يفكر، يضحك، يبكي. في هيئتنا البشرية المتكونة من عظام ولحم ودماء حمراء وبيضاء، وأوعية دموية وأحشاء، ومخ، وعقل ونفس، وروح.. حين تنتزع منك روحك يتحول كل شيء إلى أنسجة رخوة، تتحلل الخلايا، تجف السوائل.. تضمحل.. تتلاشى.. تتحول إلى رميم، فما بالك إذا أخذت منك روحك وأنت مازلت في الدنيا على قيد الحياة ظاهريًا فقط، يظن الناس أنك تحيا.. يشاهدونك بينهم, لكنك تشعر أنك غير موجود.. تتحول أوردتك وشرايينك إلى اسطوانات سوداء يجرى فيها سائل محترق ملتهب، يصل إلى كل مكان في جسدك فيحوله إلى حطام أسود.. يراك الجميع ضاحكًا أو مبتسمًا تؤدي كل ما عليك من التزامات وواجبات، لكنك تتحرك كالآلة الخربة كل ما فيك يصرخ بلا صوت، تبكي بغير دموع، آهاتك وأناتك لا يسمعها إلا الليل، قلبك ينبض بالحزن الداخلي المدفون في أعمق أعماقك سنوات وسنوات، حتى تعتاد الأشواك المنغرسة في قلبك وأحشائك، يضيع منك عمرك وأشهى لحظات العمر هي الشباب حيث القوة والنضارة والآمال العريضة والأحلام المنسكبة في كؤوس الورد والياسمين.. أين أنت الآن يا قلبي؟ كيف تفكر الآن يا عقلي؟ يمر الزمان، يحتوي الأسرار، يطويها، لكنه لا ينساها.. في كل يوم تطفو أحلامك فوق سطح الأحزان وتحيا مع مشاعرك الداخلية التي لا يطلع

عليها إلا الله، تنفجر مشاعرك من آن لآخر لكثرة ما تتعرض له من ضغوطات وانفعالات.. تعطي وتعطي، لكنك لا تأخذ شيئًا لك أبدًا سوى أحزانك.

حين أخذني زوجي عنوة، أخذ مني روحي، لكنني أنجبت ابنتي الأولى؛ فعدت إلى الحياة.. طفلة صغيرة بريئة جميلة، احتويتها في أحضاني؛ فعاد قلبي ينبض من جديد .

Obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

تم القبض على عدد كبير من المشايخ والأئمة.. السادات يستعدي الجماعات الإسلامية ويتهمهم بإثارة الفتنة مما يعرض أمن البلد للخطر، الكثير من أهل هذا البلد الذين يتمتعون ببعد النظر والبصيرة النافذة اعترضوا على اتفاقية كامب ديفيد التي وقعها رئيس الدولة في 17 سبتمبر 1978م، البعض الآخر ممن ذهبوا معه إلى القدس وصاحبوه في رحلته ذهابًا وإيابًا اعتبروه بطلا للحرب والسلام.. في داخل أحشاء مصر وفي قلبها آلامٌ كثيرة.. تعلل "السادات" بأنه وقع هذه الاتفاقية حتى لا يراق دم مصري واحد بأيدٍ غاشمة.. أخوه "عاطف السادات"، أحد الطيارين المتميزين استشهد في حرب اكتوبر 1973.. قال "السادات" عن هذه الحرب أنها أخر الحروب، ونسي أننا في رباط حتى قيام الساعة، وكلنا نعلم أنه مادامت أرضنا العربية مسلمة ومسيحية تحت الاحتلال وما دام الصهاينة يعبثون بالمسجد الأقصى ويطلقون حفرياتهم للبحث عن الهيكل المزعوم وما دامت البيوت تهدم ويقتل الناس على مسمع ومرأى من العالم كله أطفالاً ونساءًا وشيوخًا وشبابًا؛ فإلى متى؟!

أغتيل السادات يوم 6 أكتوبر 1981م أثناء العرض العسكري.. قتله "الإسلامبولي، من الجماعات الإسلامية".. هل الإسلام دين القتل؟.. أبدًا.. الإسلام دين الرحمة والمحبة والإخاء.. هذا ما حاولت تلقينه لأولادي، ولا أحب أن يفهموا ما يحدث حولهم فهما خاطئًا فعلى صغر أعمارهم يتمتعون بالذكاء والفطنة.. سألتني ابنتي الكبرى "سلمى":

ما معنى كلمة إرهاب؟

يعني تخويف الآخرين.

ولماذا يخوِّف الناس بعضهم بعضًا؟
من أجل فرض آراء وسياسات معينة.
أمي أنا لا أحب السياسة ..
لا عليكِ.. ما زلتِ في العاشرة من عمرك.. المذاكرة أهم
نظرت حولي.. وحدي أربي أولادي، زوجي في واد آخر لا يعلم عنا أي شيء.. إذا حاولت مناقشته في أي موضوع ادعى التعب واحتياجه للنوم، وحتى مشكلات الأولاد لا دخل له بها، المجاملات العائلية أقوم بها وحدي.. نفسه فقط هي محور اهتمامه.. يغلق غرفة النوم عليه وينام.

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

كنت أستعد للذهاب إلى عملي، تذكرت أن دورتي الشهرية تأخرت.. كم يومًا؟.. لا أذكر؛ دورتي منتظمة، وأنا حريصة على استعمال حبوب منع الحمل، ربما نسيت يومًا، أو يومين.. لقاؤنا الزوجي لا ينتظم ولا يتم؛ هو متعجل دائمًا وقد ينتهي قبل البداية.. أعيش في حرمان دائم فهو لا يشبعني أبدًا، ولم أعرف معه أبدًا معنى النشوة، الخدرة، الغيبوبة.. تحكي زميلاتي لبعضهن البعض "سرًا" ما يحدث في غرفة النوم.. لا أحب هذه الأحاديث، لكن ضحكاتهن تصل إليّ وحين أسأل تأتي إليّ إحداهن وتُسِر في أذني بما يقلن.. ماذا أفعل؟ عليّ أن أذهب إلى الطبيبة بسرعة.. لن أذهب إلى عملي اليوم، أنا لا أريد أي حمل بعد الآن، حملت في أولادي الثلاثة رغمًا عني.. أحبهم جميعًا، لكنني لا أرغب في أي أعباء أخرى.. يجب التخلص من هذا الحمل إذا كان موجودًا فعلاً ..

استنكرت الطبيبة ما أقول.. بكيت كثيرًا حين ظهرت إيجابية تحليل الحمل.. فترات اللقاء متباعدة فكيف حدث هذا؟ تذكرت أنني أصبت بنزلة برد حادة وتعاطيت المضادات الحيوية مدة طويلة ربما ثلاثة أسابيع كادت النزلة الشعبية تقتلني.. ربما تسبب المضاد الحيوي في إبطال مفعول حبوب منع الحمل.. أكدت الطبيبة معلوماتي حين سألتها، وانتهزت هذه الفرصة حتى أكمل أسئلتي:

زوجي لا يقربني كثيرًا.. هو مصاب بسرعة القذف وقد لا يتم اللقاء أو لا يكون كاملاً..

السائل المنوي للرجل يحتوي على ملايين الحيوانات المنوية ونقطة واحدة منه ولو على الأجزاء الخارجية عند المرأة قد تدفع بالحيوانات المنوية إلى

الداخل وهي سريعة الحركة. أتتني مريضة تشكو من شدة التوحم وحين تم الكشف عليها وجدت غشاء البكارة ما زال في مكانه.. سألتها فأجابت إجابة تثير الدهشة، قالت: "زوجي خجول جدًا ولقاؤنا الزوجي خارجي فقط"

آه.. وهكذا، حملت..

في الدنيا أشياء غريبة، كثيرة، ولكن لماذا ترفضين هذا الحمل؟

أعبائي كثيرة.. العمل والبيت والأولاد وزوجي، وهو لا يساعدني في أي شيء.

أتحبينه حتى تتحملي عنه كل شيء..

obeikandl.com

obeikandl.com

حين أتحدث إلى زوجي، لا يسمعني، ينظر إلى شفتيَّ، أو إلى نهديّ؛ لا يفكر إلا بنصفه الأسفل، أناديه فلا يعيرني أي اهتمام، فقط يشدني.. يدفعني دفعًا للفراش وينقض عليّ دون مقدمات، أصبحت أخاف من وجوده في البيت.. "هل أعيش مع صنم متحرك؟".. إذا فتحت عيني وهو يحتضنني أراني في أحضان رجل آخر، لا أرى وجهه، أشعر بأنفاسه اللافحة.. أحس بالدفء، بالاحتواء.. تنساب في وجداني نغمات حانية، قد تكون لاهثة لكنها تمتعني، تطربني.. أغفو قليلاً؛ فأراه قد ابتعد.. تختلط عليّ الأشياء.. أصحو من نومي منتعشة، الأشياء ارتدت أثوابًا أخرى من البهجة، يتراقص كل شئ حولي طربًا فأرقص أنا الأخرى.. ينظر إليَّ باستغراب، يجلس وحده في فراشه القرفصاء ينظر إلى السقف، وكأنه يرى العذارى متعلقات بمصابيح الثريا.. يداعبها فتختفي، يشد الغطاء، وينام.

انصرف الجميع، الأولاد إلى مدارسهم وزوجي إلى عمله، حاولت ارتداء ملابسي، أصابني دوار شديد.. اقترب موعد الولادة، بطني منتفخ، لكنني جميلة، جلست في فراش أحاول التماسك، اشتد دواري.. استلقيت، رأيته أمامي، الشاب الطويل الأسمر أزاح ملابسي عني، تحسس جسدي الناعم اللدن، مال يقبلني، أسكرتني قبلاته.. رحت في غفوة عميقة، أشم أنفاسه، مغمضة العينين أراه.. أناديه فيلبي النداء.. هل أشتهي رجلاً يحبني وأحبه؟ أمتعه ويمتعني، هذه الاختلاجات والنبضات السريعة تمر في ثوان.. هل هي الحب أم المتعة أم السعادة؟

أفقت من غفوتي.. ينساب الماء بين ساقيّ.. آلام الوضع بدأت.. جاءت ابنتي الأخيرة إلى الدنيا بعد ساعات من نقلي إلى المستشفى، بعد انتهاء

أجازة الوضع عدت إلى عملي.. أعمل، وأعمل في البيت، المدرسة، مذاكرة الأولاد، الطهو، تنظيف المنزل، الكي، فسحة الأولاد.. كل شئ أفعله وحدي.. لا أحد يساعدني إلا الله، لا أذهب إلى السينما.. لا أشاهد التلفاز.. فقط أسمع بعض الأخبار والأغنيات صباحًا من مذياع التاكسي وأنا في طريقي إلى العمل.. أنام وأنا في أشد حالات الإرهاق والتعب.. كرهت كل شيء.

Obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

نحن، بنو البشر لا نشبع من متع الدنيا أبدًا، خلقنا الله على أجمل صورة.. "الله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى"، وحين هدانا للاكتشافات والاختراعات التي تيسر حياة الإنسان أصبح هدف الإنسان متعته الذاتية حتى وإن تألم الآخرون.

يتعاطى زوجي كل أنواع الفيتامينات، ثم أصبح يختفي ليلة أو ليلتين في منزلهم القديم الذي منحته له أمه قبل وفاتها. اشترى لنا شقة جديدة في حي آخر واحتفظ بالشقة القديمة بكل أثاثها، يدعي الإرهاق ويذهب إلى هناك ليستريح من صخب الأولاد.

أنام في غرفة أولادي؛ في هذه الليلة أيقظتني ابنتي الكبرى التي أتمت الثالثة عشرة من عمرها قائلة أنها تشعر بألم شديد في معدتها.. أسندتها حتى وصلت إلى الحمام فإذا بها تتقيأ دماءًا حمراء قانية وتسقط بين يديّ مغشيًا عليها، استغثت بابني الذي استيقظ فزعًا وأتى لنقلها إلى فراشها وهاتف الطبيب، نقلنا ابنتي إلى المستشفى لإجراء الفحوصات، أصابني الذهول حين أخبرني الطبيب أنها مصابة باللوكيميا "سرطان في الدم"، وبدأنا رحلة العذاب.

الهزال، الشحوب، النزيف.. أربعة أعوام وابنتي تعاني، وأنا وأخواتها نعاني معها، أما زوجي فهو يأتي لزيارتها يوميًا لكنه لا يمكث معنا إلا نصف ساعة وينصرف متعللاً بعمل إضافي.. لم يزدد دخلنا ولم يضف زوجي أي مبلغ آخر غير ما يدفعه ..جزء من راتبه:

"وتصرفي أنتِ؛ فأنا عندي التزامات كثيرة"

علمت أنه يفكر في شراء سيارة..

أنظر إلى ابنتي وهي طريحة الفراش وأتمنى لو كنت مكانها.. الطفلة الرقيقة الحنونة، التي كانت تلاحظ ما بيني وبين أبيها من جفوة ونفور ولا تتكلم، تعانقني وتقبل خدي فكأني ملكت الدنيا وما فيها، وماذا تهم الدنيا أمام كل هذا الحزن المطل من عينيها، كانت ترقد في فراشها الأبيض كالملاك البريء الطاهر، عيناها مغلقتان، شعرها متساقط، عظام كتفيها بارزة، أنفاسها ضعيفة.. فتحت عينيها:

أهلاً يا ماما..

احتضنتها بكلتا ذراعيّ.. أقبلها وأهمس لنفسي: "يا لطفلتي المسكينة"

حاولت أن أخفي حزني خلف قناع من ركام الابتسامات الكاذبة، قدمت لها أزهار القرنفل البيضاء التي تعشقها حتى أنها تزرعها في أصيص صغير في شرفة البيت.. أمسكت بقرنفلة، قربتها من أنفها قائلة:

ربما كان عمرك أطول من عمري..

لا تقولي هذا الكلام.. لا توجعي قلبي.. الله موجود..

أمي.. أنتِ امرأة شجاعة.. تمسكي بإيمانك.. شفائي في رحيلي..

لا.. لا.. تفاءلي.. فوضي أمرك إلى الله..

ليس لنا غيره.. الحمد لله.

فاضت روحها وهي في حضني، الصغيرة في عمرها، الكبيرة في تحملها وصبرها، الزهرة اليانعة، القلب المتفتح بالرحمة والحنان، الأمل، الغد المنتظر..

هل الروح تفنى؟ حين قال الله عز وجل "ونفخنا فيه من روحنا".. الله لا يفنى.. أيضًا الروح لا تفنى.. حين نموت تصعد الروح إلى بارئها فبالرغم

obeikandl.com

من أننا لا نراها ولا نلمسها, لكننا نعرف أنها موجودة فهي التي تعطيك الحياة، حيوية الجسد، الدم الذي يجري في العروق، نبضات القلب، بريق العينين، إحساسك، مشاعرك.. بالروح تعرف أنك موجود، فإذا فارقتك انطفأ البريق في عينيك، كف عقلك عن العمل.. همدت كل مراكز الإدراك، توقف قلبك، تغير لون جلدك، تحولت إلى رميم.

فقدت شعوري بالحياة.. لا أهتم بأي شيء، لا نوم، لا طعام، لا عمل..

أنظر حولي فألمح طيفها يناديني "ماما".. أنفاسها تدفئني، ضحكاتها أسمعها في كل غرفة.. أنام في فراشها فأشعر بها إلى جانبي تتقلب في الفراش وترفع الغطاء عن كتفي لتقبلني كما كانت تفعل دائمًا، وأمرض فتمد يدها بالدواء وتهدهدني حتى أشفى.

أنادي: "سلمى.. سلمى".. أين أنتِ؟، فيرتد إليّ الصدى.

obeikandi.com

obeikandl.com

تزحف الأيام بطيئة تقتلني، تغتال أيامي وعمري وأحلامي.. ينطوي قلبي على أحزانه فمن ذا يجفف دمعي الدامي، ألا تشرق الشمس يومًا وتحملني فوق أشعتها إلى الأفق البعيد؟، أما من أحد يمسح الآلام التي أثقلت وجداني.. كيف تضيء الشموع لنا وهي تبكي؟ تعزف بأدمعها ألحاناً من الضوء الهادئ ثم تفنى.. أين المفر من عذابات مستمرة.. أخشى على سفينتي التائهة أن تغرق وأعود وحدي أحمل القلب الملهوف على كفي، يكاد يطير بلا أجنحة إلى حيث يرى ملائكة النور ترحب به، تناديه: "هلم.. أقبل، واترك هذا العالم الفاني، يحملك الضوء إلى أعلى، فوق سحابات الهدى، تسمع تسبيحًا، ترانيمًا وألحانًا نورانية، سترى النجوم تصفق، تهلل وتنحني إجلالاً وحبًا.. تخفف كل أحزانك ولا تنظر خلفك حتى لا ترى كل من كان قبلك، أجسادًا مسجاة في حفرة، زرعوا عليها نبات الصبار بأشواكه.. هل تصبر الأجساد بعد فنائها؟ أم تستعد لرحلة أخرى تحملها عبر الأثير، لا تظللها غير قطرة دم واحدة سقطت من قلب وحيد، سقطت منه بغتة، ثم رحل وترك خلفه كل أحزان العالم وعاد إلى رفيقه الأعلى كطائر صغير يرفرف بأجنحة الضوء ويهدأ بعد طول ترحال"

عدت إلى عملي واهتمامي بأولادي خاوية القلب، منكسرة الفؤاد، لا يشغلني إلا أولادي.. أصبحت معهم بصفة دائمة، نأكل، نلعب، نذاكر، نناقش، نقرأ، نشاهد التلفاز، معهم ومعهم فقط..

في الليالي القليلة التي أنام فيها في غرفة نومي، أكون كالجثة الهامدة من فرط الإرهاق, لكن مازالت أحلامي تحملني إليه، الفتى الطويل الأسمر، من أحببته وأحبني، ولن أنساه أبدا، هو في شراييني ودمي.. تحوطنا ألوان

قوس قزح، تخطفنا الأضواء، تحملنا أمواج البحر، نسبح معا فى اللاحدود.. سعادتي الغامرة تلفني بوشاح من الهدوء.. فجأة، يظلم المكان وينقض علينا طائر أسود غريب، بمخالبه يمسكني من ذراعي، يحملني، يؤرجحني في الهواء ثم يرتفع عاليًا.. أحاول أن أصرخ.. لا يخرج صوتي.. يقذفني الطائر وسط الأمواج الهادرة، أسقط فتتكسر ضلوعي، أستيقظ فزعة، أتصبب عرقًا.. تتلاحق خفقات قلبي.. أنظر إلى جانبي فإذا بزوجي يغط في نوم عميق.

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

انتهيت من أعمال المنزل، أولادي في غرفتهم يراجعون دروسهم؛ فالامتحانات على الأبواب، دخلت الحمام وبدون قصد امتدت يدي إلى المنطقة المحظورة، الأجزاء المهمة جدًا في جسد المرأة قد تم استئصالها من جسدي، لا توجد لها أي آثار، شعرت بآلام شديدة في نصفي الأسفل كنت قد أحسست بها من قبل أثناء نومي، أستيقظ أحيانًا من شدة الألم وكأن نخاعي الشوكي يئن ويصرخ، أعضائي عطشى تطلب الارتواء، تشتعل حواسي، تلتهب مشاعري، أتلظى بالرغبة، أتقلب في فراشي وجسدي يزأر، ينتشلني الدمع الساخن فينساب على وجنتيّ فأبكي وأبكي حتى أنام بالقهر، وحين أستيقظ أشعر وكأني قد خرجت لتوي من كهف عميق، تتداخل مشاعري، أوجاعي، أدخل إلى الحمام وأقف تحت المياه الباردة في عز الشتاء؛ علّها تطفيء ظمئي أو نيراني الجسدية المشتعلة، أدخل غرفة نومي، أجده جثة هامدة، ينام واضعًا ساقًا على ساق.. متكبرٌ حتى في نومه، لا يتواضع، لا يخضع، لا يراني إلا حين يريدني، أما أنا فأصبحت لا أريده، ولا أشتاق إليه، أختبيء منه في داخلي وأعيش كالآلة، كل مشاعري أصبحت سلبية بل موجهة ضده، حواجز من التصنع تنمو بيني وبينه، حاولت هدمها فلم أستطع، وحين تمكنت من نزع بعض أحجار الحاجز اضاف هو أحجارًا وأحجارًا، حتى أصبح الحاجز الصغير المنخفض جدارًا صلبًا عاليًا يصعب اجتيازه أو هدمه.

تجذبني أحلامي فأسأل الذي غاب عني سنوات طويلة: "أمازلت تذكرني؟، أمازلت أسكن داخل قلبك؟ وهل تراني عيناك طيفًا يمرح داخل حلمك؟ أم تاهت صورتي من عينيك وذابت وسط الزحام؟.. قل لي فقط

أين أنت؟ أسمع صوتك يناديني.. أتلفت فلا أجد إلا السراب.. ألمح أوراقي تتقاذفها رياح النسيان، أحاول أن ألملمها فتسقط أقلامي في الطريق، إلا قلم واحد، كتبت به اسمك.

obeikandl.com

obeikandl.com

هذه الأيام يتعمد زوجي أن يدخل المطبخ، وأنا واقفة فيه أطهو الطعام أو أغسل الأطباق، يتعلل بإحضار زجاجة ماء من الثلاجة أو بعض الفاكهة ثم يلمس مؤخرتي أو صدري أو أي جزء من جسمي.. في البداية ظننت أنها صدفة, لكن حين تكررت نفس الأفعال كرهته كثيرًا. هل هو محتاج لمثل هذه الأفعال المراهقة، هل أنا حق مكتسب له يفعل به ما يشاء؟
أصبحت أراه دائمًا في وضع مقلوب: رأسه إلى أسفل، وساقاه إلى أعلى، فهل يفكر زوجي بنصفه الأسفل، هل صعد كل شيء إلى أعلى وهبط مخه إلى أسفل، هل هرمونات الذكورة تفعل بالرجل ما تفعله هرمونات الأنوثة بالمرأة؟
في لحظة خارج الزمن، وبعد انتشائه، حكى لي ما كان يفعله أثناء لهو الشباب، وكيف أنه ذهب مع أربعة من أصدقائه إلى شقة أحدهم للعبث مع إحدى العاهرات، وحين جاء دوره حاول أن يعتصرها بكل قوته وبكل جسده فتألمت وصفعته، وقامت ثائرة تلعنه وتسب اليوم الذي رأته فيه، هرول وراءها عاريًا، جذبها من يدها، أفلتت منه وانحنت على ملابسها تلتقطها من على الأرض فهجم عليها وجذبها من خصرها بكل ما يملك من قوة وألقى بها على الفراش ثم صب سائله على فخذيها!!
حكى لي كيف دخن المخدرات مع أصدقائه القادمين من الجنوب، وشرب الخمر مع أصدقائه القادمين من أوروبا، وتلهى كثيرًا بالنظر إلى النساء شبه العاريات والمرتديات البكيني الصارخ على شواطئ المنتزة والمعمورة. تعجبت كثيرًا، أُصبت بالغثيان؛ لقد فشل كثيرًا في دراسته حتى تخرج بالكاد في كلية التجارة وسافر إلى الخليج ثم عاد وتم تعيينه بالواسطة

والمحسوبية في إحدى الشركات، ساءلت نفسي: "ماذا كان يفعل بنفسه وجسده في غربته؟ أم أن النساء متوفرات له في أي مكان؟

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

أنا الكائن الذي كرَّمني الله وعلَّمني الأسماء كلها وأمر إبليس أن يسجد لي وخلق حواء من ضلعي لتكون جزءًا مني، في الجنة أحسست بالوحدة فطلبت من الله أنيسًا أو ونيسًا؛ فخلق حواء لتؤنس وحدتي فإذا بها تسمم حياتي وأُطرد بسببها من الجنة. فإذا توجعت ضلوعي أو احترقت أفلا أشعر بها؟

أعلم أن زوجتي تبذل جهدًا كبيرًا من أجلنا جميعًا لكنني لم أتعود خدمة أحد.. أنا أُخدم فقط وهي خُلقت من أجلي أنا فلماذا تتذمر وتشكو دائماً؟ هي لا تتكلم، لكن نظرة واحدة من عينيها تكفي.

وبصفتي رجل فرغباتي كثيرة: أحب الطعام، أحب النساء، أتربع في فراشي الذي هو عرش الرجولة وأحاول إعادة ما تعودت عليه سنوات وسنوات.

لكني بعد عام واحد من الزواج - الذي أقدمت عليه مللا من حياة العزوبية ـ اكتشفت أن زوجتي تكره اللقاء الحميمي، حاولت أن أرضيها بأية طريقة، بأي وضع لكنها باردة، أصبحت تتهرب مني وتشغل نفسها بأشياء كثيرة حتى لا تنام إلى جانبي، هي امرأة شهية، ذات خصوبة عالية، أنجبت أربعة من الأبناء بالصدفة وبالقوة، ثلاث فتيات وابن واحد ترتيبه الثالث بين أخواته، فقدت الابنة الكبرى.. هذا قضاء الله، وماذا أفعل في قضاء الله؟ هل أعترض؟

أصبحت هي تنام في غرفة البنات بجوار الابنة الصغرى "هبة"، أحاول اجتذابها مرة أخرى إلى أحضاني، أحضر لها الآيس كريم والشيكولاتة والفراولة والعطر الذي تحبه.. لوّحت لها بالشريعة وأنها آثمة إذا لم تُرضِ زوجها، لكنها تأتي مرة، وتهرب مرات.

أقترض مجلات الإثارة والفتيات الجميلات العاريات، أبتلع الفيتامينات والأعشاب، أدخن السجائر المحشوة التي تذهب بعقلي.. لكن ماذا أفعل وأنا أعضائي ترتخي بسرعة وهي لا تصل إلى النشوة أبدًا؟..

في خلايا أعصابي يفور الرجل بفحولته وقوته، وفي خلايا جسدها كل الأنوثة والنعومة فلماذا لا نلتقي أبدًا في لحظة نشوة واحدة؟.. أتكفي العلاقة الخاصة الزوجية لبقائنا معًا؟.

هل أخطأت حين حكيت لها كل شيء عن علاقاتي قبل الزواج؟

صاحبت وداعبت وقبلت، فتيات ونساء كثيرات من كل الألوان والأشكال والأجناس.

وأنا في الخليج أرسلتني المؤسسة التي كنت أعمل بها في مهمة عمل إلى أمريكا، ثلاثة شهور وأنا أعمل نهارًا وأعبث كما أشاء ليلاً، لكن امرأتي هذه مختلفة عن كل من عرفت.. هي رقيقة، حيية، ناعمة، في ليلة الزفاف منعها حياؤها من خلع ملابسها أمامي أصرت على أن يتم كل شيء في الظلام, لكنني أخفقت واستمر فشلي ستة شهور كاملة حتى أمدني أحد أصدقائي ببعض الأعشاب القوية، فحصلت عليها رغمًا عنها.. تجتذبني رائحتها، ابتساماتها تثيرني، ضحكاتها تدغدغني، أذوب شوقًا إليها, وأنا في عملي، لكنها لا تعبأ بي؛ الأولاد ومطالبهم وخدمتهم أصبحوا كل شئ في حياتها.. تفرح حين تحبو طفلتنا الصغيرة، تنتظر ظهور الأسنان اللبنية، تسندها حين تحاول الوقوف والمشي، تطهو الطعام حتى يحضر الأولاد الكبار من المدرسة.. زوجتي ماهرة في كل شيء، إلا معي.. أصبحت ترفضني دائمًا، تنفلت مني وأنا في جوف الرغبة وتهرع تنام في أحضان طفلتنا النائمة في

obeikandi.com

أحضان "الملائكة"، حتى الصباح.

عدت من عملي مرهقًا، الجو حار، التهمت طعام الغداء ودخلت إلى غرفة النوم، أغلقت الباب وفتحت حقيبة العمل، أخرجت شرائط الفيديو التي استعرتها من أحد أصدقائي القدامى، خلعت كل ملابسي هكذا أجلس مرتاحاً أشاهد ما أريد، يدق الباب، تحاول زوجتي فتحه، لكنني أحكمت إغلاقه من الداخل، ارتديت ملابسي، أغلقت التلفاز بعد أن أوقفت شريط الفيديو وفتحت الباب، دخلت زوجتي تحمل أكوام الغسيل الذي جف وتم كيه لتصفه في الدولاب، نظرت حولها وسألتني:

لماذا تغلق الباب من الداخل؟

أريد ان أنام..

لست بنائم.. أكثر من ساعتين وباب الغرفة مغلق.. اترك الباب مفتوحًا ربما أحتاج شيئًا من الغرفة.

لمحت زوجتي غلاف شريط الفيديو، تأملتني، فتحت التلفاز، لاحظت جهاز الفيديو أسفل المنضدة، شغلت الشريط؛ اكفهر وجهها، وأنا أقف أمامها كالتلميذ الخائب. اقتربت مني، أمسكتني من ذراعي:

لماذ تصنع بنا مثل هذه الأفعال الشائنة؟

أنا لا أصنع بكم أي شيء.. أنا أجلس وحدي، وأتفرج..

ألا تخشى أن يرى أولادك ما ترى؟

أخفي كل شيء..

كيف تدخل الشيطان في بيتك؟ هذا حرام.. ماذا إذا نسيت الشريط في الجهاز ورآه الأولاد.. أتظن أنهم سيحافظون على

حبك واحترامهم لك، وماذا تستفيد من هذه الوقاحة؟

هذه شرائط قديمة، وجدتها بالصدفة..

لا قديمة ولا جديدة.. احرقها فورًا.

هجمت على جهاز الفيديو لإخراج الشريط، أمسكت بيدها مانعًا إياها من لمس الشريط، نظرت لي باشمئزاز، وخرجت

ليست كل الأشياء جميلة وسهلة وممكنة في هذه الحياة قد تكون الزوجة ربة بيت ممتازة لكنها بسبب التزمت الشديد تحبس مشاعرها، أعتقد أنها لو أطلقت العنان لهذه المشاعر لأصبحت امرأة أخرى. قد تدفعني تصرفاتها إلى الحرام، لكنني لم أعد أفكر في الطريق الآخر، فقط النظر من بعيد لبعيد، النساء تمتلىء الدنيا بهن، ولكن... ماذا أفعل مع امرأتي؟ أحاول التحكم في عضلاتي بل وكل جسدي حتى أرضيها.. لكنها لا تمنحني أي فرصة أخرى، حتى أولادي لا يتكلمون إلا مع أمهم، لا يطلبون أي شيء إلا منها، حتى الشهادات الدراسية توقعها هي باسمي.

* * *

obeikandl.com

obeikandl.com

وضعت طعام الغداء على المائدة، ناديت أولادي وزوجي. أتت "هدى" و"هبة"، لم يأت ابني ولا زوجي، دخلت إلى غرفة ابني أنظره لعله نائم، وجدته يبكي.. سألته عدة مرات عن سبب البكاء، وأنا أحاول تهدئته حتى يتمكن من إجابتي:

يا أمي.. أبي يرفض الإنفاق عليّ أثناء دراستي الجامعية.. كيف أعمل وأدرس وهو يعلم أنني سألتحق بكلية الصيدلة؟.. الدراسات العملية تستغرق وقتاً طويلاً، كيف أذاكر؟ متى أذهب إلى العمل؟ وأي عمل سأجده هذه الأيام؟ الخريجون لا يجدون عملاً والحكومة رفعت يديها عنا، فماذا سأعمل أنا؟

تحشرج صوتي وأنا أسأله:

أي عمل تقصد؟.. لا أفهم.. متى وأين وكيف؟ هل طلب أبوك أن تترك الدراسة؟ لم أعد أفهم اي شيء..

قال لي لقد أنفقت عليك ثمانية عشر عامًا وأصبحت رجلاً، الناس في أمريكا ينفقون على أولادهم حتى السادسة عشرة ثم يتكفلون هم بأنفسهم، يعملون ويدرسون وقد لا يقيمون أيضًا مع أسرهم في نفس المنزل..

ضربت كفًا بكف.. ماذا حدث لهذا الرجل؟ خريج الجامعة لا يجد عملاً.. الكثيرون من حملة الماجستير والدكتوراه لا يجدون عملاً في تخصصاتهم؛ فماذا يعمل ابني أثناء الدراسة؟

أخذت ابني في حضني:

- لا تفكر في أي شيء، ستدرس في كلية الصيدلة ولن تعمل إلا بعد التخرج بإذن الله، وتستكمل أيضًا الدراسات العليا، فقط اجتهد وتفوق..

obeikandl.com

كيف يا أمي؟.. لقد حاولت مناقشة أبي، رفض مجرد الإنصات.. كنت كمن يحدث نفسه.

لا تخف.. سأعمل ليل نهار.. سأوفر لك كل ما تحتاجه.. هل أغضبت أباك في أي شيء؟

أبدًا والله يا أمي.. وهل تجدينني أغضب أي أحد؟

لا يا ابني.. أنت شاب مهذب محترم على خلق، محبوب من كل من يعرفك.. ربما عنده مشاكل في العمل.. لا تشغل بالك، فقط استعد للدراسة.

خلوت إلى نفسي بعد أن نام كل من بالبيت، لم أحاول مناقشة زوجي أو أن أطلب منه أي تفسير لموقفه هذا.. ما بال الإنسان الذي خلقه الله على أجمل صورة ومنحه وجهًا جميلاً وعلمه الأسماء كلها يأبى ألا أن يصطبغ بالدمامة والكذب والخداع والتلون والتصنع، أرى زوجي مع أقاربه وأصدقائه منتهى اللطف والبساطة والذوق الرفيع، لكنه معنا يدخل ويخرج مقطبًا لا تعرف الابتسامة طريقها إلى شفتيه، يلقى بأوامره ونحن علينا فقط السمع والطاعة وليس من حقنا أبدا الاعتراض أو الرفض.

في اليوم التالي، ألقى لي زوجي ببعض المال، كمصروف للبيت، نظرت إليه طويلاً ثم سألته:

هل ما أخبرني به ابني أمس صحيحًا؟

أجاب دون النظر إليّ..

نعم..

هذا ظلم.. أنانية.. ..

أشار لي بيده، أن أصمت..

إلى متى أصمت.. أنت تتصرف في كل شيء كما تشاء، ولا تسألني في أي تصرف تفعله ولا حتى نجلس معًا نفكر في مستقبل الأولاد.

المستقبل بيد الله وحده..

ونعم بالله.. ,لكن علينا أن نخطط ونرتب.. لا تظلمه.. دراسته ستكون صعبة يجب علينا مساعدته..

ساعديه وحدك..

كيف؟.. دخلنا تعرفه جيدًا..

ضحّي.. أليسوا أولادك..

ارتفع صوتي محتجة:

ألم تعد ترى أي شيء.. ألا تعرف شيئًا عن الأسعار وارتفاعها اليومي؟.. ألا تدري بما يحدث في البلد؟.. ألا..

كفى.. صوتك لا يعلو عليّ.. سنوات وأنتِ تعيشين معي مهذبة، حلوة اللسان، طائعة، صامتة.. ماذا حدث؟

فاض بي الكيل.. تعبت من الطاعة والصمت ولم يعد ينفع أي شيء..

انسابت دموعي كالفيضان تكتسح أمامها كل المشاعر، كل الحزن، كل الألم..

خرج زوجي وتركني لدموعي..

نظرت إلى نفسي في المرآة:

هل تزوج زوجي بامرأة أخرى؟ هل له منها أولاد يحتاجون الإنفاق عليهم لذلك يقتر علينا؟.. هو يوزع حبه واهتمامه ومشاعره الطيبة على الجيران وأولادهم، وعلى حارس العمارة التي نقيم بها، وعلى المتسولين في الشوارع،

obeikandl.com

لكنه يضن علينا بكلمة طيبة أو حتى ضحكة ترطب حياتنا.. لم أعد أفكر إلا في أولادي..

حين يناديني، أسمع صوته من أبعد المسافات، أدخل في الحلم.. تحممني الأطياف.. تعطرني فتنثر البخور والعطور وتلفني بالغلالات الشفافة، وأناديه فيأتي إليّ ونسبح معًا في أوراق الورد.

أستفيق فأجادل نفسي:

ـ ألا تهدئي، ألا تتجملي بالصبر؟ ألا تتحملي؟

تقول:

ـ العمر يتوارى خلف غمامات الزمان, لكن القلب والجسد ما زالا يشتعلان، الروح تسمو وترتفع, لكنها قد تتوه وأنت في أحضان الغيبوبة ومن حولك الأطياف الناعمة، اخرجي من ذاتك، ترفعي عن رغباتك، اتركي كل شيء خلفك؛ فهذه الزهرات الثلاث تنتظرك، فمدى يد العون لها..

أزيحي كل شيء من طريقك، حتى نفسك.

obeikandi.com

obeikandl.com

obeikandl.com

أصبحت بكَّاءة، تنهمر دموعي لأي سبب وبدون سبب، لكني لا أشكو عذاباتي لأي أحد، أصبر صبرًا طويلاً، سنوات وسنوات وأنا أعاني..

هاجر أخي إلى كندا وعمل مهندسًا بإحدى الشركات الصناعية، توفيت أختي الكبرى بمرض في القلب، أخواتي الأخريات مشغولات بأولادهن وأزواجهن، يسألن عني بالتليفون وقد تأتي إحداهن من وقت لآخر لزيارتي، ثم اندثرت الزيارات وتقلصت المكالمات التليفونية.

دخلت إلى غرفة المدرسين التي أجلس فيها أثناء وقت الفراغ.. كنت أصحح كراسات التلميذات حين فاجأتني زميلتي "سعاد":

لماذا البكاء؟.. تنساب دموعك وتتساقط على الكراسات..

.. ..

ألا تردين على زميلتك؟.. ولماذا كل هذا الحزن في العينين الجميلتين؟

أريد عملاً إضافيًا..

في يدك.. أنتِ مدرسة مواد مهمة جدًا.. إذا أشرت بإصبعك أصبح دخلك شهريًا لا يقل عن عشرة آلاف جنيهًا..

لا تحدثيني عن الدروس الخصوصية.. تناقشنا في هذا الموضوع من قبل، وتعرفين رأيي.

أولياء الأمور لا ذنب لهم في ظروفنا.. كلهم مساكين.. كلهم محتاجين.. أليس هذا كلامك؟، ونحن أيضًا مساكين، نحتاج طعامًا وشرابًا وملابس وطلبات للأولاد و... و...

لن أغيِّر رأيي.. لن أعطي دروسًا خصوصية.. لن أضع يدي في جيب أي أحد.

إذن هناك وعلى بعد عدة شوارع من بيتك سيتم افتتاح مركز للمجاميع الدراسية.. أحد الزملاء كان في إعارة وعاد رافضًا العودة للعمل الحكومي، وسيفتح مركزًا لكل المواد الخاصة بالثانوية العامة.. تعرفين أنها الآن عامان متتاليان. نتمنى أن تعود عامًا واحدًا كما كانت من قبل، رحمة بأولياء الأمور كما تريدين.. خذي هذا الكارت واذهبي به للأستاذ "محسن"، قابليه وستجدين خيرًا إن شاء الله..

تناولت منها الكارت، قذفته في حقيبتي، وعزمت على التوجه إلى الأستاذ "محسن".

لا أعرف معنى للحب دون عطاء.. زوجي لا يعطيني شيئاً أبدًا.. يأخذ مني كل شيء، حياتي، صحتي، شبابي، أموالي التي أصرفها ـ دون أن يطلب ـ على بيته وأولاده، دراستي العليا التي تركتها لأتفرغ له، هو وحده، برغم أنني تزوجته رغمًا عني، حتى في العلاقة الحميمية، (ولا أدري لماذا أطلق عليها هذا الاسم؟) لا يمهد لنفسه بأي اسلوب رقيق بل ينقض عليّ كحيوان جائع، يلتهم فريسته بلا رحمة ولا هوادة، أشعر بيديه حين يلمسني كأنها أشواك تنغرس في جسدي حتى أصبحت أتهرب منه، يزعجني صوته، أنفر من كل شيء فيه، حتى حين نتحدث لا نصل إلى نقطة التقاء واحدة، لا يشبعني عاطفيًا ولا عقليًا ولا جسديًا حتى رائحة الأنفاس تقتلني.. أنام في غرفة بناتي فيأتي ليوقظني، يحاول أن يجرني إلى غرفة النوم، أكاد أن أصرخ، أمتنع عن الذهاب، يرتدي ملابسه ويخرج ولا أعرف إلى أين.. قال لي ذات يوم:

الزوجة الممتنعة عن زوجها تدخل النار، بدون رضائي لا تشمين رائحة

الجنة..

كيف أحيا مع رجل لا أحبه.. وكيف أعطيك نفسي وقد قتلتها منذ زمن بعيد؟!

جلست في غرفة المعيشة أقرأ، أولادي نائمون، زوجي سافر في الصباح الباكر لإحدى المدن القريبة للتعزية في وفاة أحد أصدقائه القدامى..

أحسست بحركة غريبة في غرفة النوم، هرولت إلى الغرفة، وجدته واقفاً أمام الدولاب عاريًا تمامًا، أغلقت الباب بسرعة، همست:

متى أتيت؟ ولماذا تقف هكذا تاركًا باب الغرفة مفتوحًا؟ أنا لم أشعر بك وأنت تفتح باب الشقة..

نظر لي باستخفاف:

أبحث عن ملابسي، أرغب في الاستحمام، لا أحب غبار المقابر.

على الأقل أغلق الباب، ماذا يقول ابنك إذا استيقظ فجأة من النوم ومر من أمام الباب المفتوح هذا وشاهدك هكذا؟ أو كانت إحدى بناتك ساهرة تذاكر؟

كفي.. أريد أن أنام.. اعطني ملابسي لأستحم وكفي عن الكلام..

حمل ملابسه ودخل إلى الحمام، يفعل زوجي دائمًا ما يشاء، وكأنه يعيش وحده.

obeikandl.com

استيقظت من نومي مبكرًا جدًا كعادتي كل صباح، اغتسلت، حلقت ذقني، ارتديت ملابسي، تناولت طعام الإفطار الذي صنعته لنفسي ثم حملت حقيبة العمل وخرجت دون أن يستيقظ أحد من النائمين "طبعًا زوجتي وأولادي".

قُدت سيارتي، لكنني أثناء الطريق كنت أفكر: لماذا لا أنفرد بنفسي اليوم بعيدًا عن كل شيء؟.. لماذا لا أذهب إلى منزلنا القديم الذي أحتفظ به للآن احترامًا لذكرى أمي التي منحتني إياه، وأوصتني ألا أفرط فيه أبدًا ففيه ذكرياتها مع المرحوم أبي الذي أحبته كثيرًا.. "هكذا كانت النساء في هذا الزمن".. في هذا البيت ولدت وتربيت أنا وأخي وأختي، وفيه لعبت كثيرًا في الحديقة الصغيرة المحيطة بالمنزل، لم تكن تحوطه تلك العمارات العالية التي أصبحت تحجب عنا الشمس والهواء. دخلت من باب البيت إلى غرفتي التي أحتفظ بها دائمًا مرتبة ونظيفة، أضع دائمًا بعضًا من الطعام في الثلاجة تحسبًا لأي ظروف، قد استضيف بعضًا من أصدقائي ليلة أو ليلتين نعيش الذكريات القديمة.. فرحت كثيرًا حين اخترعوا الحبة الزرقاء وحاولت تجربتها مع زوجتي، لكنها في هذه الليلة، نامت بجوار الابنة الصغيرة التي كانت تعاني ارتفاعًا في درجة الحرارة، ابتلعت المنشط دون جدوى.

في غرفتي دولاب كبير تتوسطه مرآة كبيرة، خلعت كل ملابسي.. عاريًا تمامًا أقف أمام المرآة، أنظر إلى جسدي، أتفحصه، ألمس كل أعضائي، أستدير يمينًا ويسارًا.. مالي أنا.. رجل ولا كل الرجال.. سليم.. صحة وطول وعرض.. أضرب على صدري بقوة: أنا قوي قوة مائة حصان، أحتاج لمهرة قوية

فنقطع السباق معًا، ونصل إلى النهاية معًا فتكون النشوة، لكني للأسف، لا أشبعها.. لا أكفيها.. كيف؟.. أنا أشبع عشر نساء في وقت واحد، فكيف لا أكفي امرأة واحدة؟.. هل هي باردة؟.. هل تكرهني؟..

قالت لي في إحدى المرات الفاشلة، أنها تزوجتني رغمًا عنها؛ فلماذا تعيش معي؟

أتلفت حولي فأجد نفسي دائمًا وحدي.. هي مع أولادها، مع عملها وكتبها، في المطبخ، في السوق.. في أي شيء، إلا أنا.. أنا أيضًا أصبحت لا أريدها..

جلست على الفراش، ارتديت ملابسي.. سقطت من بنطالي صورة.. إنها صورتها أمسكتها في يدي.. أتأملها.. أحدثها:

"أنتظرك.. نعم أنتظرك كطائر تاه عن عشه، أتلمس طريقي إليك، كغريق يتلمس النجاة، كشراع مزقته كثافات الغيوم أو كليل ينادي القمر..

أتعرفين أحدًا غيري؟."

مستحيل.. هي نقية، طاهرة، جميلة، صافية، حتى عيناها الواسعتان بريئتان، وحين أقبلهما أشعر بأهدابها ترتعش.. من أنا ومن هي؟ ومتى نلتقي على شيء واحد؟

صارخًا أقول:

ـ أحبها، ولا أقدر على فراقها..

أنظر لصورتك وأكلمك كأني أراك أمامي..

أتذكرين.. في أول عام لنا معًا كانت ضحكاتك تجلجل في غرفة النوم حتى خشيت أن يسمعك الجيران.. كنت تعاطيت شيئًا دون أن تلاحظي..

جسدك البض يستهويني.. أحب كل شيء فيك.. حين أفشل في إرضائك

أتقوقع على نفسي ثم تنثرين غضبك في وجهي..
قلت لك مرارًا وتكرارًا "اذهب إلى الطبيب".
أي طبيب هذا الذي أذهب إليه؟ أنا سليم بدنيًا ونفسيًا وعصبيًا.. أنتِ التي لا تستجيبين بسهولة.. لم أسمع هذا الكلام من امرأة أخرى؛ كلهن كن منتشيات، منتعشات، مبتسمات، ضاحكات..
ثم تباعدت عني أيامًا وشهورًا، مرة نائمة، مرة مُتْعبة، مرة البنت مريضة، مرة ظهري يؤلمني.. الدورة الشهرية، التهابات، توجعات.. و.. و...، وأنا أنتظر وأنتظر وقد ذابت رجولتي من الانتظار.
يجب ان أنتقم لرجولتي المنسحبة من طول الانتظار، إنها تنظر لي وكأنها لا تراني، يجب أن تعلم جيدًا أنني رجل وأن مئات النساء تتمنين النوم معي في فراش واحد؛ فحولتي لا جدال فيها، فكيف لا أكفيها كيف.. كيف؟
هرولت إلى سيارتي، ذهبت إلى عملي.. حين دخلت إلى مكتبي تعجب زميلي؛ فقد اتصلتُ به منذ ساعة أسأله أن يقدم لي إجازة لمدة يومين، لكنني تراجعت وذهبت إلى مقر العمل للحصول على إجازة طويلة.
فتحت أدراج مكتبي، أخذت بعض الأوراق ودسستها في حقيبتي، أغلقت الدرج بالمفتاح، وخرجت متوجهًا إلى أرشيف الشركة، رأيتها تجلس على المقعد أمام مكتبها سلمت عليها ثم اقتربت منها هامسًا في أذنها ..
تتجوزيني يا "فايزة"؟
عقدت الدهشة لسانها؛ هي مطلقة منذ سنوات ولديها ابن في الخامسة من عمره، وهي امرأة (مربربة) تهتز وتتبختر حين تسير فيهتز كل شيء فيها، وأنا رئيس الحسابات في هذه الشركة؛ فهل ترفض الارتباط بي؟ هي تشاغلني

obeikandi.com

خفية إذا التقينا صدفة، فهل تستجيب لطلبي هذا؟

نظرتني متسائلة بمنتهى الدهشة والدلال:

أنا.. يا أستاذ "محمود"؟

نعم.. نعم، والآن.. حالاً..

أليس لي أهل؟ اطلبني منهم..

ليس لكِ إلا ابنك ووالدتك..

ضحكت بميوعة:

آه.. سألت عني، وتعلم كل شيء..

هيا قومي بسرعة.. قدمي طلب إجازة للمدير..

جذبتها من ذراعها، تألمت، تخلصت من يدي:

اصبر يا أستاذ محمود..

سنذهب إلى بيتكم، وسنعقد القران اليوم، ثم سنذهب إلى مرسى مطروح لقضاء شهر العسل.

وابني؟

اتركيه مع أمك.. سنترك لها كافة المصروفات.. هيا..لم تصدق "فايزة" نفسها، كثيرًا ما صعدت إلى الطابق العلوي، وتعللت بأي سبب لتدخل غرفة الأستاذ "محمود" وكثيرًا ما تدللت في حديثها معه، ومالت إليه ليشم عطرها الرخيص، ويرى ثدييها المنتفخين من خلال فتحة الفستان، أهكذا يأتي إليها متعجلاً، متلهفًا، يجب أن تغالي في طلباتها، يبدو أنه أحبها ولا يطيق عنها الفراق.

جذبها "محمود" من أفكارها مرة أخرى، نفضت كل الأفكار وهبت واقفة،

obeikandi.com

وضع أمامها ورقة بيضاء وقلمًا، كتبت طلب الإجازة وأسرعتْ صاعدة إلى غرفة المدير.

العقل يعرف أولاً؛ فيوجه الإرادة إلى الفعل، فهل يميز العقل جيدًا بين الخير والشر؟.. قد تختلط الأمور وما يعتقده المرء خيرًا، قد يكون شرًا مستطيرًا؛ فهل ما فعلته صوابًا، أقترب من الخامسة والخمسين، لا أعاني أي مشكلات صحية، زوجتي الثانية أنثى لا تتهرب مني أبدًا، لا تشتكي، تصنع لي أشهى طعام وأحلى العصائر، سألتها أن تستقيل من عملها لتستقر للأبد في مرسى مطروح فاستجابت، نقلت عملي إلى هنا ثم بعد خمس سنوات سأتقاعد، سأبيع منزل أسرتي "عذراً يا أمي" سأضطر لهذا لأقيم مشروعًا خاصًا في مطروح، المدينة جميلة وأهلها طيبون.

obeikandl.com

تمطت فايزة في فراشها، ما زالت لا تصدق أنها الآن مع الأستاذ "محمود" في فراش واحد، هو أكبر منها بعشرين سنة, لكنه متلهف، متعجل لكل شيء، تركت ابنها مع أمها بعد عقد القران، اشترى لها محمود كل ما طلبت: ملابس، أحذية، حقائب، عطور، مستحضرات تجميل، كل طلباتها أُجيبت، لم تسأله لماذا اختارها هي؛ فهي تثق في أنوثتها المغرية والتي كانت سببًا في طلاقها من زوجها الأول الذي كان يغار عليها غيرة شديدة ويضيّق عليها في كل شيء:

"لا تخرجي.. لا داعي للعمل، لا تحدثي صديقتك هذه ولا تخرجي معها، لا تذهبي إلى أمك فربما تشاهدين جاركِ الذي تقدم لطلب يدك قبلي.. لا.. لا.. لا ـ"

حتى انفجرت فيه صارخة ذات يوم: "طلقني ـ"، وحين رفض، ذهبت إلى أمها باكية تطلب الانفصال؛ عنه ادّعت أنه يضربها ويخفي عنها مفاتيح الشقة حتى لا تخرج، وادّعت أيضًا أنه يستولي على راتبها ولا يمنحها إلا الفتات.

مكثت مع أمها عامين رافضة العودة إليه.. يروح ويجيء ويرسل بعضًا من أهله للتفاهم، يقدم تنازلات كثيرة ويتعهد بعدم مضايقتها، يرى ابنه مرة كل شهر، يحمل له الهدايا والملابس.. حاول استرضاءها كثيرًا لكنها رفضت العودة، وتم الطلاق.

أحست أنها تتنفس، عادت إلى صبغ شعرها ووضع العطور الفجة وأحمر الشفاة الفاقع وارتدت الملابس الضيقة والأحذية ذات الكعب العالي حتى تتأرجح أردافها إذا سارت خطوتين.

obeikandi.com

تركت لأمها كل المال الذي دفعه "محمود" وبدأت حياتها الجديدة، هو ينفق عليها بسخاء، ولم يشترط عليها أي شيء.. فقط يريدها هي، أنثى فجة الأنوثة صارخة الرغبة، حين يطلبها لا ترفض ولا تنشغل عنه بأي شيء.

بعد انتهاء أسبوعي العسل ذهبت معه إلى مدينتهما، هي قدمت استقالتها من العمل، وهو قدم طلبًا للانتقال إلى فرع الشركة في مرسى مطروح، كان فرعًا جديدًا فانتقل إلى هناك مديرًا للفرع.

Obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

لم تترك "صفاء" ساعة التليفون للاتصال بالأهل والأقارب والأصدقاء للسؤال عن زوجها، كانت تعلم أنه من حين لآخر يذهب إلى منزلهم القديم، لكنها لم تجده هناك بل وجدت شخصًا آخر أخبرها أنه اشترى المنزل من الأستاذ "محمود".

ذهبت إلى مقر الشركة.. نظر إليها زملاؤه ثم تبادلوا نظرات دهشة بينهم وكل منهم يتساءل بينه وبين نفسه:

"هل طلب محمود نقله دون إخبار زوجته، هل انفصلا؟ لماذا لم يصطحب أسرته معه؟ ربما بسبب مدارس الأولاد أو عمل زوجته، لكنها كانت تستطيع أن تطلب نقلها إلى حيث عمل زوجها".

أسئلة كثيرة متضاربة تصارعت في رؤوس زملائه.

تقدم منها أحدهم بورقة كتب فيها عنوان الشركة بمرسى مطروح وأرقام التليفونات، أما الآخر فقدم لها مقعدًا لتجلس، قائلاً:

استريحي يا أستاذة.. الأستاذ "محمود" زميل عزيز علينا جميعًا.

التقطت الورقة، وعيون الزملاء تنظرها بتمعن، انصرفت شاكرة وتحياتهم تتبعها.. استقلت تاكسيًا، وما أن أغلقت بابه خلفها حتى انفجرت ضاحكة:

الحرية.. الحرية..

نظر خلفه متعجبًا - سائق التاكسي - فكتمت ضحكاتها، استعادت كل حياتها.. اثنان وعشرون عامًا، سقطت هذه الأعوام من عمرها، بل هي أعوام لم تعشها رغم محاولاتها المستمرة إقناع نفسها أنها سعيدة ولا ينقصها أي شيء.. ينظر لها الجميع على أنها زوجة مثالية وزوجها يأتمر بأمرها،

والعكس هو الصحيح، بل هي محسودة حتى على أولادها وتفوقهم الدراسي بالرغم من فقدانها لابنتها الكبرى وهي في سن المراهقة.. في جنازة ابنتها، رأت نظرات الإشفاق في عيون الجميع، وكأن لسان حالهم يقول: "السعادة لا تكتمل أبدًا"، إلا أولادها، كانوا يشعرون بالفجوة الكبيرة بينها وبين والدهم.

عادت إلى غرفة نومها.. استلقت على فراشها، وحيدة لكنها مرتاحة:

"لماذا لم يطلقني قبل أن يذهب؟."

سألتها نفسها:

وهل تتزوجين مرة أخرى؟

- لا.. لن أدخل رجلاً غريبًا على أولادي، وهل يقبل رجل الارتباط بامرأة تحمل في قلبها ثلاثة قلوب، لا بل أربعة، فابنتي الكبرى - المتوفاة بسرطان الدم - لم تفارقني أبدًا.. ألمح وجهها الحبيب يبتسم ويتتبعني أينما ذهبت، أراها في ثوبها الأبيض الفضفاض بين سحابات بيضاء ناصعة بالبراءة، تشير لي من بعيد من سماء صافية لا تتلبد بالغيوم، أشعر بها تقبِّلني في جبهتي كما كانت تفعل كل مساء قبل الذهاب لفراشها لتنام، ألمح عينيها الصافيتين أسمعها دائمًا تناديني: " ماما."

تسألني نفسي كل يوم:

هل ما زلتِ تحبينه؟.

لا.. لم أحبه أبدًا.. حاولت، لكن معاملته لي والتناقض الشديد بيننا أفشلا محاولات الحب.. كنت أحيا فقط من أجل أولادي.

والآن..

- لا شئ.. أنا كنت في جميع الأحوال الأب والأم.. غاب عنا منذ زمن طويل. لا أحب أن أستحضره في ذاكرتي..

ألا تتذكرين العشرة التي كانت بينكما؟

لم يكن يتذكرني إلا حين يريد شيئًا، فإذا انتهت أشياؤه نسيني.

غلبني النوم.. رأيتني على فراشي ودمائي تسيل من جسدي، تفتح كل عروقي وتخرج، وقلبي أيضًا يخرج من صدري يسير نحو دمائي.. يحاول لملمتها وجمعها في داخله فتنزلق، يروح ويجيء، يحاول مرة وأخرى؛ فيفشل.. أظل مفتحة العينين أنظر له، أنهض لأضعه مرة أخرى في صدري فيأبى ويبقى خارجًا.. أستيقظ من نومي فزعة، وأنفاسي تتلاحق.

لاحظت أن ابني يطلق لحيته، أعلم ما يحدث في بلدنا هذه الأيام، العالم كله من حولنا يلف، يدور، يتحرك حركات غير منتظمة، تفكك الاتحاد السوفيتي، وأطلق جورباتشوف صيحة البروسترويكا.. حين انتشرت الشيوعية في روسيا من قبل اضطهدوا المسلمين، تغيرت أسماؤهم الإسلامية، وأخفوا المصاحف وسجاجيد الصلاة تحت أرضيات البيوت، حفظوا القرآن ورتلوه غيبًا في صدورهم وأسمعوه لأولادهم في مهدهم، فلا يغيب الهدى عمّن اهتدى ما دام في القلب إيمان.

قال لي ابني أنه سيبحث عن عمل بعد تخرجه فهو معفى من التجنيد, لكنه يجب أن يقدم أوراقًا تخص والده حتى يحصل على شهادة الإعفاء ويعمل.

نظرت إليه متأملة وجهه الوسيم، توسلت إليه أن يحلق ذقنه.. تردد، قال أنه سيفكر.. انطلقت باكية راجية بدموعي أن يزيل لحيته فأنا أخاف عليه..

obeikandl.com

من أي شيء تخافين؟
ألا تعلم ما يحدث.. الاضطهاد، السجن، الاعتقال، التعذيب..
هذا مستحيل..
المستحيل أن أفقدك، أنت رجلي الوحيد..
أخذته في حضني وشهقاتي تتصاعد كالدخان من صدر يلتهب بالخوف والأسى والترقب، لم تتوقف دموعي إلا حين تركني ودخل الحمام وخرج حليق الذقن.. تنهدتُّ في شيءٍ من الراحة، لكنني يجب ان أذهب إلى مرسى مطروح بحثًا عن أبيه، فقد أوشك ابني على التخرج، وابنتي هدى تقدم لها من يطلب يدها فقد تخرجت وتعمل مدرسة للغة الفرنسية فى إحدى مدارس اللغات.
جلست في غرفتي أفكر: "هل انضم ابني لإحدى الجماعات؟.."
لو كان أبوه ما زال يعيش معنا هل كان سيتركه يفعل ما يشاء؟.. آه أبوه كان معنا وامتنع عن الإنفاق عليه.. أعمل أنا ليل نهار، في الصباح بالمدرسة الحكومية ثم بعد الظهيرة في المركز التعليمي.. أعود لبيتي في الحادية عشرة مساء، منهكة القوى، أتفقد أولادي.. ابنتي الصغرى في نهاية المرحلة الاعدادية، تحتاجني لمراجعة بعض الدروس في العلوم.. أمكث معها يوم

obeikandi.com

الجمعة بعضًا من الوقت، ثم أدخل المطبخ لطهو طعام الأسبوع، تساعدني "هدى" في تنظيف البيت وشراء احتياجاتنا من السوق، وقد يذهب معنا ابني لحمل بعض الأغراض. كبر أولادي ويحاولون مساعدتي.

في صباح اليوم التالي استأذنت من مديرة المدرسة للانصراف مبكرًا.. لم أعد لمنزلي بل ذهبت إلى المقابر، أوحشتني ابنتي الكبرى، وقفت أمام القبر أقرأ الفاتحة وأبكي, أتأمل كل المقابر من حولي، أعلم أني في يوم ما سأدفن هنا، هذا هو مقرنا الأخير، وقفت أعزف بأدمعي ألحانًا من العذابات والألم، أتوسل إلى الله أن يساعدني، أخشى على سفينتي التائهة أن تغرق، قلبي الملهوف يطير بلا أجنحة، يود أن يرى ملائكة النور ترحب به، تحتويه، تصعد به إلى أعلى، أغمضت عينيَّ في وسط الراقدين أسمع ترانيمًا، همهمات علوية.. أنظر إلى أعلى كأني أرى النجوم مع أن الشمس ساطعة، فكأن الشمس توارت لتترك للنجوم مكانًا، ببريق النجوم وشعاعات الشمس التي تحاول الظهور يتهلل هذا القلب المحزون، ينحني للكون الصامت الهادئ ولصانع هذا الكون.. نظرت إلى القبر ناديتها:

اين أنتِ يا ابنتي؟.. كنا نفرح معًا، نضحك معًا، هذا الجسد المسجى في حفرة، زرعت عليه نباتات الصبار بأشواكه، فهل تصبر الأجساد بعد فنائها أو تستعد لرحلة أخرى عبر الغيب أو عبر الأثير غير المرئي، والأرواح الخالدة لا تظللها إلا قطرة من دم طاهر بريء، من قلب حزين سقطت.. ابنتي، رحلتِ وتركتِ لي خلفك كل أحزان العالم.. عدتِ إلى الرفيق الأعلى.. لماذا لم أذهب معك؟ أرفرف بأجنحة الضوء وأرحل، وأستريح بعد طول ترحال.

شاهدتها، تخرج من قبرها.. ترتمي في أحضاني.. تفترش روحي، أصطحبها معي إلى البيت، في الطريق، تتركني معتذرة، تعود من حيث أتت؛ فالدنيا لم تعد تسعها.

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

Obeikandi.com

عملت "فايزة" في هذه الشركة بعد حصولها على دبلوم التجارة المتوسطة، قبعت في بيتها عامين تنتظر إما الزواج أو العمل، طموحاتها الكثيرة والكبيرة دفعتها إلى رفض كل من تقدموا لها طالبين الزواج، العمل أهم؛ فربما أعجب بها موظف كبير وتزوجها، لكن العمل تأخر حتى توسط لها أحد الوجهاء الذين يترددون على ورشة أبيها لإصلاح سياراتهم، جلست أمام مكتبها تكتب الخطابات على الآلة الكاتبة ثم دخل الحاسب الآلي شيئًا فشيئًا إلى عالمها، ذهبت إلى أحد مراكز تعليم الكمبيوتر وتعلمت العمل عليه، وأصبحت تقوم بالمحادثات الفردية الشخصية بينها وبين الكثيرين، حاولت أن تلقي شباكها على الأستاذ "عزيز"، وهو رئيس الحسابات السابق، كانت تلمحه من وقت لآخر يتفحصها بعينيه الزرقاوين، بل ويكاد يلتهمها أو يخلع عنها ملابسها بنظراته الشرهة، بدأت تحضر معها كل صباح طعام الإفطار وتصنع له الشاي بنفسها، فطلب منها مراجعة فواتير المشتريات للشركة، وبدأت العلاقة التبادلية بينهما بتلاعبات بسيطة في الأرقام، يخرج من الفواتير بعضًا من المال الذي يقتسمانه معًا، واكتشف هذه التلاعبات الأستاذ "سعيد" خريج كلية التجارة والذي تم تعيينه حديثًا في قسم الحسابات، أبلغ "سعيد" المدير العام ورئيس مجلس الإدارة بالتلاعبات التي بدأت صغيرة ثم كبرت وتنامت، لكن الأستاذ "عزيز" هو الذي كان يحصل على النصيب الأكبر أما فايزة فتغير حالها؛ وأصبحت ترتدي أغلى الملابس وتضع العطور الباريسية وتحمل الحقائب الثمينة، هددها المدير العام بإبلاغ البوليس، توسلت إليه بدموعها، بل وساومته على جسدها، فلطمها على خدها بصفعة قوية كادت تحطم نصف وجهها.. وتم

نقلها إلى الأرشيف بعد تدخل الوجيه - رجل الأعمال - الذي كان قد توسط لها للعمل بهذه الشركة، أما رئيس الحسابات الأستاذ "عزيز"، فكان قد قدم استقالته فور إحساسه بتسرب أخبار التلاعب في الفواتير وسافر إلى ابنه في أمريكا.

انتقلت فايزة إلى الأرشيف تلملم ما تبقى من الكرامة المهدرة، وتفكر في المستقبل؛ مات أبوها وتركها هي وأمها في شقة صغيرة متواضعة بأحد الأحياء الشعبية، وكانت قد تعرفت بشاب يعمل في أحد المصانع في حلوان يحمل دبلوم المدارس الصناعية، عن طريق محادثات الكمبيوتر، تواصلت معه حتى تقدم طالبًا يدها، انتقلت إلى حلوان، وهناك أنجبت ابنها الوحيد, لكن غيرة الزوج دفعتها لتركه والعودة إلى مدينتها، كانت قد حصلت على أجازة لرعاية الطفل؛ فعادت لعملها بأرشيف الشركة، وطلبت الطلاق.. غادر الزوج السابق وسافر إلى السعودية للعمل بأحد مصانعها الجديدة.

غابت "صفاء" وأولادها عن ذاكرة "محمود" الذي أحيل للتقاعد، وافتتح محلاً صغيرًا لتجارة الشاي الأخضر وزيت الزيتون والنعناع والتمر، عمل بمهارة ودأب حتى تحوّل الدكان الصغير إلى محل كبير يعمل فيه ثلاثة من العمال من أهالي البدو.

اشترى "محمود" قطعة من الأرض أحاطها بالأسوار استعدادًا لبناء فندق أو عمارة سكنية كبيرة، أما "فايزة" فقد تركت ابنها مع أمها، تذهب إليه كل ستة شهور بعد أن أوهمته أنها تعمل في الخليج، تحمل له الهدايا واللعب والحلوى والملابس وتصحبه إلى السينما والملاهي، تمكث معه عدة أيام ثم

تعود لمرسى مطروح، تفتش في جيوب محمود وتشم ملابسه حتى علمت أنه اشترى قطعة الأرض الكبيرة، وبدأت في إرهاقه بطلباتها المادية والجسمانية ورغبتها المتأججة وشبقها المستعر، كانت تتعمد إثارته بكل الوسائل، وكلما اشتدت رغبته ارتفع الثمن، وفي إحدى اللحظات الحميمية الملتهبة أصيب "محمود" بأول أزمة قلبية.

تتغيب "فايزة" عن زيارة "محمود" في المستشفى الذي احتاج للرقود فيه فترة طويلة حتى يتعافى من الأزمة القلبية، أصبحت لا تعبأ بمرضه.. يكاد يفقد عقله، لماذا لا تأتيه كل يوم؟ وإلى أين تذهب؟

حين فتحت باب غرفته، ودخلت تمايل في مشيتها، وهي تلوك اللبانة في فمها صرخ فيها قائلاً:

ثلاثة أيام لم أشاهدك فيها تفتحين عليّ هذا الباب ولا تردين على اتصالاتي التليفونية.. أين كنتِ؟

ردت عليه دون أي اهتمام ودون الالتفات إليه:

ومن يباشر محلك الكبير؟ من يراقب العمال والحسابات؟ أنسيت أني كنت أعمل في شركة كبيرة وأفهم في الحسابات؟

العمال أدرى بعملهم، يعرفون كل صغيرة وكبيرة.. مع من أتعامل؟ ومتى أتسلم بضاعتي؟ ومتى أدفع فواتيري؟..

لكنهم يسرقونك...

لا.. أبدًا.. إنهم أمناء..

اقتربت منه وطبعت قبلة على شفتيه:

يسرقونك يا حبيبي، وأنت هنا لا تدري ..

أخرسته قبلتها وحنانها المفاجئ، مضت تتحسس كل مكان في جسده حتى انفجرت رغبته، اشتهاها رغم مرضه.. صعدت إلى جانبه، وعلى فراش المستشفى أشبعته من رحيق النشوة حتى ارتوى.

في اليوم التالي حضرت "فايزة" مبكرة تحمل طعامًا وحلوى وفواتير الدكان، جلس "محمود" يأكل ويراجع فواتير الدكان وكثيرًا من الأوراق الأخرى، أخبرها أنه ربما يغادر المستشفى غدًا، هكذا أخبره الطبيب المعالج، نظرت إليه مبتسمة:

فرصة ياحبيبي، يجب أن تستريح بعد هذه الأزمة الشديدة.

لا.. سأباشر عملي..

لا يمكن، أنا سألت الطبيب، وأشار بالراحة على الأقل الثلاثة أسابيع القادمة.. ممكن تتمشى في البيت فقط.

نظر إليها متعجبًا.. لاحقته بكلمات الحب والغزل ..

عافيتك هي ما تهمني، ليس لي إلا أنت.. أكتب توكيلاً لي.. سأباشر كل شيء بنفسي وأطلعك يوميًا على كل الفواتير وحسابات المحل، ألست بزوجتك، من حقي أن أحافظ على مالك ومن حقك أن تستريح، غدًا بعد خروجك نذهب لعمل التوكيل.

وضعت لقمة كبيرة في فمه، وفتحت دولاب المستشفى لتعد حقيبته للخروج.

opeikandi.com

obeikandl.com

obeikandl.com

مرضت مرضًا شديدًا أقعدني عن الذهاب إلى العمل حتى مواعيد المركز التعليمي ألغيتها، كانت حرارتي المرتفعة تجعلني أنتفض وأرى غرفتي حمراء بلون الدم، أسمع أصواتًا تناديني وأرى أناسًا يمدون أياديهم لي: "تعالي معنا" أسألهم: "إلى أين؟"، لا يردون، يتراجعون، يصعدون إلى أعلى وتختفي الأصوات، أغط في نوم عميق، وكأني ذهبت عن الدنيا كلها، أستيقظ مبللة بالعرق، أهذي وأنادي أمي وأبي وكل الأموات الذين فارقونا.. أراه يبتسم مكشرًا عن أنيابه وكأنه إله الشر، هل للشر إله؟ قالوا لنا: "الله لم يخلق الشر"، وأن الشر من أنفسنا؛ فالخير، كل الخير، يأتي من عند الله وما نحسبه نحن شرًا قد يكون الخير بعينه، أما الرذائل فمن عندنا. فهل الشر هو خير لم ينضج بعد؟ هل سمح الله للشر أن يتواجد في دنيانا من أجل أن نرى الخير ونعرف معناه وقيمته؟ هل لو كانت الدنيا كلها خير لأحببناها أكثر أم أن الخير كان سيتوارى ويصغر حتى لا نلحظه ولا نشعر به؟ هل رذائلنا فضائل سالبة أم هي فضائل تحورت وتمحورت حول ذواتنا، ذواتنا نحن فقط ، فتحولت إلى شر.. كل هذه الحوارات التي اصطنعتها مع نفسي حاولت نفسي الإجابة عليها، سمعته يقهقه في ثوبه الأسود وبذراعيه الطويلتين القويتين يحاول أن يرفعني إلى أعلى ثم يقذفني في كهفه المجهول، صرخت صرخات عالية جدًا، فزعة، أتصبب عرقًا..

أتت ابنتي وهرول ابني من غرفته.. أضاءوا مصباح الغرفة، وجدوني ملقاة على أرضية الغرفة، من شدة هذياني أو هلوسة الحمى سقطت من على فراشي.. شاهدته يرفع يديه عني، ويتراجع حتى خرج من سقف الغرفة، مسحت ابنتي دموعي واتصل ابني بالطبيب.

عدت من الإجازة المرضية إلى عملي، ضعيفة، شاحبة حتى أنني لم ألحظ الزميل الجديد الأستاذ "فوزي" مدرس اللغة الإنجليزية، لكنه في فسحة منتصف اليوم الدراسي تقدم مادًا يده لمصافحتي، قدم لي نفسه.. نظرت إليه بعينين كليلتين، هالني ما شاهدته من وسامة وأناقة وقوام فارع.

بمرور الأيام بدأ الأستاذ فوزي يتقرب إليّ، يتحدث معي بتلقائية، وكأنه يعرفني منذ زمن طويل، علمت أنه في الخامسة والأربعين، أعزب، أحب أمه لدرجة الجنون حتى أنه لم يرتبط بأي امرأة إلا أمه، كان وحيدها فعكف على رعايتها حتى وافتها المنية.. قال لي:

كنت أبكي على أمي كصبي وحيد تائه.. لم أتحمل رؤيتها تدفن وحدها في القبر, أردت أن أدفن معها..

إلى هذا الحد أحببتها؟

كانت أمي هي الدنيا كلها، خشيت أن أتزوج فأنشغل عنها وهي ليس لها أقارب هنا..

نظر إلي بحنان بالغ..

على فكرة، أنتِ تشبهينها كثيرًا.. أمي كانت ألمانية، وكانت جميلة مثلك تمامًا..

لم تحدثني عن والدك..

أبي توفي في حادث في ألمانيا ـ كان طبيبًا يدرس للدكتوراه في الجراحة تعرّف على أمي وتزوجها ـ وكنت أنا في الرابعة من عمري، أصرت أمي أن أتربى في بلدي، وسط أهل أبي، جاءت بي إلى هنا وأسلمت وحسن إسلامها، لكن أهل أبي اختلفوا معها بخصوص الميراث.. أخذوا نصيبهم

من تركة أبي وانفصلوا عنا تمامًا؛ فعشت وأمي ليس لي إلا هي، وليس لها إلا أنا..

ازداد فوزي تقاربًا مني، كثيرًا ما كان يأتي بالحلوى والمرطبات ويدعوني لتناولها معه، في البداية كنت أرفض، لكنني أشفقت عليه وعلى مشاعره الرقيقة ووحدته، وفي إحدى الرحلات المدرسية التي أشرف عليها انتحى بي جانبًا، وطلب مني الزواج، ضحكت:

أنا متزوجة من ثلاثة أشخاص: ابني وابنتيّ.

أعرف أنك منفصلة عن زوجك.

آه.. نسيت أن أخبرك أني لست منفصلة.. مازلت في عصمة زوجي.

لكنك تعيشين وحدك أنت وأولادك.

هل تراقبني؟

بصراحة.. نعم.. سرت بسيارتي خلفك ذات يوم، وسألت حارس العمارة التي تقيمين فيها قال لي: "الأستاذة تعيش هي وأولادها هنا".

زوجي هجرنا.. أعرف مكانه، قادرة على طلب الطلاق أو الخلع، لكني لا أريد.

أترفضينني..؟

لستُ امرأة مطلقة، ولا أرملة، ولا آنسة، فكيف أرفضك؟.. الأفضل أن نكون أصدقاء..

هل تضحكين عليّ أم على نفسك؟.. في مجتمعنا الشرقي لا توجد صداقة بين رجل وامرأة.

بلى.. توجد صداقة بين رجل وامرأة.. أنا وأنت أصدقاء.

Obeikandl.com

ناديت على إحدى زميلاتي؛ فقد اقترب موعد العودة من الرحلة ويجب علينا تفقد التلميذات، وقفت وفي يدي كشف بالأسماء أنادي واحدة واحدة، وهو يرقبني من بعيد.

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

وقفت هبة تتوسل إليّ أن أسمح لها بالذهاب مع زميلاتها إلى هذه الرحلة، هي الآن في السنة الأولى الثانوية، تخرَّج ابني ويعمل عملاً مؤقتًا بإحدى شركات الأدوية حتى الحصول على شهادة الإعفاء من التجنيد، أما هدى ابنتي الأكبر منه فقد تزوجت وسافرت مع زوجها الدبلوماسي إلى الخارج.

تعاود هبة إلحاحها وأنا أرفض خوفًا عليها.

يا أمي سنشاهد الأهرام وأبو الهول.. و.. و..

نشاهدها كثيرًا في التليفزيون، حين أحصل على عطلة طويلة من عملي نذهب في الصيف سنكون معًا أنا وأنت وأخوك، سأجعلك تتنزهين كما تشائين وتلتقطين من الصور ما لا تعرفين عدده.

يا أمي.. الرحلة مع زميلاتي وصديقاتي ومدرساتي أرجوكِ..

وافقت "صفاء" رغم خوفها على "هبة" الصغيرة الجميلة التي أنجبتها رغم"ا عنها، وبالرغم من ذلك فهي تحبها ولا ترفض لها أي طلب..

استيقظت مبكر"ا جد"ا، أعددت لها حقيبة ممتلئة بالشطائر والفاكهة والحلوى ومنحتها مبلغًا من المال:

- اشتري ما تشاءين، وإذا ذهبتم إلى خان الخليلي اشتري لي تمثالاً صغيرًا لكليوباترا أو نفرتيتي.

هل تريدين شيئًا آخر؟.. سأشتري لك أيضًا سلسلة فضية يتدلى منها الجعران.

انتبهي لنفسك خذي بالك من "هبة" فهي أمانة في رقبتك..

ضحكت.. قبلتها..

عودي إليّ سالمة..

إن شاء الله..

في المساء، لم تعد "هبة".. أخذت صفاء تتردد بين النافذة والشرفة الكبيرة المطلة على الشارع الرئيسي، نام الجميع، أغلقت كل المحلات.. قالوا لها أن أتوبيس المدرسة سيصل في الحادية عشر مساء، ذهبت إلى المدرسة لم تجد أي أحد، عادت إلى البيت وجدت ابنها قد استيقظ لصلاة القيام، شاهد أمه في أشد حالات القلق، وعلم منها أن "هبة" لم تعد بعد من الرحلة، ارتدى ملابسه واصطحب أمه إلى المدرسة مرة أخرى.. الساعة تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل ولم يعد أي أحد من الرحلة، تجمع أولياء الأمور في انتظار بناتهم، بدأ بعض الآباء في الاحتجاج، وانخرطت إحدى الأمهات في بكاء شديد؛ ابنتها وحيدتها لم تعد حتى الآن، اقترب الفجر، ذهب حارس المدرسة يتصل بالمديرة تليفونيًا، حضرت على عجل.. في السابعة صباحًا تلقت المديرة خبر انقلاب أتوبيس المدرسة في طريق العودة وإصابة بعض التلميذات والمدرسات والمدرسين.

اشتد الهرج بين الجميع، أخبرت المديرة أولياء الأمور باسم المستشفى التي تعالج المصابين، اصطحبها أحد أولياء الأمور في سيارته للذهاب إلى المستشفى، وتأهب كل من معه سيارة لأخذ عدد من أولياء الأمور معه للتوجه إلى مكان الحادث، نظرت المديرة حولها، هي تعرف "صفاء" جيدًا وتعلم أنها زميلة لها تعمل في مدرسة أخرى.

أستاذة "صفاء" أرجوكِ.. تفضلي معنا.. أنتِ تحسنين التصرف في المواقف الصعبة..

استأذنت "صفاء" من ابنها الذي يجب أن ينصرف للذهاب إلى عمله، وعدته بالاتصال به مباشرة بعد وقوفها على تفاصيل ما حدث.

استقلت "صفاء" السيارة مع المديرة وزميل آخر، قدم الأستاذ "مصطفى" نفسه إليهم، هو رجل أعمال يمتلك شركة سياحة، ابنته "رباب" هي التي تقيم معه أما ابنه الأكبر "أحمد" فيدرس الهندسة بكندا، زوجته توفيت منذ عامين لمرض بالقلب.

أصيبت "رباب" بكسر في ساقها وأصر والدها الأستاذ "مصطفى" على نقلها إلى مستشفى خاص بالإسكندرية، أما "هبة" فلم تصب إلا بسحجات بسيطة وجرح في جبهتها تم خياطته بسرعة..

اطمأنت مديرة المدرسة على كل من كانوا في أتوبيس الرحلة؛ استطاع السائق أن يتفادى اصطدام الأتوبيس بعمود أسمنتي ضخم لمبنى كبير تحت الإنشاء؛ فجاءت الإصابات بسيطة ماعدا مدرس واحد أصيب بارتجاج في المخ تركوه راقدًا في المستشفى تحت العلاج.

عادت "صفاء" وابنتها "هبة" وصديقتها رباب ووالدها "مصطفى" إلى الإسكندرية، أما مديرة المدرسة فقد أصرت على البقاء في القاهرة لحضور التحقيق في الحادث وتقدير الإصابات.

اصطحبت "صفاء" ابنتها "هبة" لزيارة "رباب" في المستشفى، فقد اضطر طبيب العظام لتركيب شريحة معدنية في ساق "رباب"..

أفاقت "رباب" من التخدير فوجدت صديقتها بجانبها تحمل لها أزهار الياسمين التي تعشقها، أما الأستاذ "مصطفى" فقد انهمك في الترحيب "بصفاء" شاكرًا لها تفضلها بالزيارة.

Obeikandl.com

بعد عدة أيام عادت "رباب" لبيتها، وعادت "صفاء" لزيارتها مع ابنتها "هبة" التي حملت إليها كل الكراسات لتساعدها في نقل ما فاتها من دروس في معظم المواد الدراسية، أما "صفاء" فقد دهشت لفخامة الفيلا التي يعيش فيها الأستاذ "مصطفى" هو وابنته فقط، ويقوم على خدمتها خمسة من الخدم أهمهم على الإطلاق مديرة المنزل التي تهيمن على الآخرين هيمنة كاملة.

قام الأستاذ "مصطفى" بتقديم الحلوى والمشروبات لـ"صفاء" بنفسه، حتى الشاي صبه بنفسه لها في فنجانها وتفحصها بعينيه جيدًا وهو يسألها:

كم قطعة سكر؟

قطعة واحدة من فضلك.

حاولت "صفاء" أن تقوم هي بوضع السكر في الشاي فتلاقت أصابعها بأصابعه، أحست برعشة في أطرافها فقد لمس أصابعها بحنان شديد. جلسا يحتسيان الشاي، و"مصطفى" يحكي لصفاء عن قصة مرض زوجته وكيف أنها عانت طويلاً حتى بعد تركيب صمامات جديدة بدلاً من الصمامات التالفة, لكنها أصيبت بجلطة رئوية أودت بحياتها، لكنه بالرغم من مشاغله الكثيرة يشرف على كل صغيرة وكبيرة تخص أولاده وخاصة "رباب" ويحاول أن يعوضها عن حنان الأم الراحلة.

بدأ "مصطفى" يتصل "بصفاء" من وقت لآخر، وفي كل مكالمة يتعلل بسبب وهمي للاتصال، حتى أصبحت اتصالاته دون أي سبب، لكن "صفاء" في كل مكالمة كانت تختصر الحديث وتغلق كل النوافذ التي يطل منها "مصطفى" على قلبها، هذا الوجه الجميل والابتسامة الهادئة الرقيقة

obeikandl.com

وكلماته المنتقاة ومجاملاته التلقائية.

لم يتوقع حضورها بالرغم من موافقتها على لقائه، تهلل وجهه ضاحك"ا، احتضن كفها بكفيه، أمسك بالمقعد الذي ستجلس عليه وكأنه يقبله، جلس قبالتها، تسحبت يداه للإمساك بيدها أو حتى لمسها.. سحبت يديها بسرعة.. سألته مباشرة:

أستاذ "مصطفى".. لماذا طلبت مقابلتي؟

لنتحدث.. أ.. أ.. أحدثك عن نفسي وتحدثيني عن نفسك.

من خلال ابتسامتها الهادئة وصوتها الواثق:

أعلم كل شيء عنك..

وأنا أيضاً أحب أن أعلم كل شيء عنكِ..

لماذا؟

أجاب مترددًا:

بصراحة.. أعجبت بك جدًا.. أنا وحيد وأنت أيضًا، علمت أنك تعيشين وحيدة، أرغب في الارتباط بك.. نتزوج ونعيش معًا جميعًا، أنا وأنت والأولاد.. أسرة واحدة..

أنا مازلت على ذمة زوجي.

توقفت الكلمات على شفتيه، أمسك بكوب الماء المثلج، ورشف بضع قطرات ابتلعها بصعوبة ومسح بيده على شعره..

أنا أعرف أنكِ مطلقة.

لم أطلب الطلاق من زوجي.

ألا تعرفين مكانه؟.
أعرف أين هو، وأستطيع طلب الطلاق.. لكني.. لا أريد.
مازلتِ شابة.
أنا في الرابعة والأربعين، وأحب أن أعيش لأولادي.
ومشاعرك.. أحاسيسك، عذرًا.. احتياجاتك...
توقف بإشارة من يدها، أن يكف..
أنا مرتاحة هكذا.. لا أحب أن يدخل أحد بيني وبين أولادي.
صدقيني سأكون لك نعم الزوج ولهم نعم الأب، ابنتي أيضًا وحيدة وتحب ابنتك جدًا، وهي أعز صديقاتها، إذا كانت هذه الفيللا صغيرة، يمكن أن أبني فيللا أكبر تسعنا جميعا، سألبي كل طلباتك، مهر، مجوهرات، أثاث، أي شيء تطلبينه بصراحة أنا أحبك، أحبك جدًا وأتمنى أن تكوني زوجتي..
تقطرت ابتسامتها مرارةً وألمًا..
"آه لو قابلتك أنت من قبل.. آه لو تزوجت الفتى الطويل الأسمر ابن خالتي الذي كان أول قلب ينبض له قلبي.. آه لو تزوجت معيد الجامعة، آه لو تزوجت الأستاذ فوزي الذي كنت أرتاح له كثيرًا.. آه.. كيف أهرب من عذابي وهو في داخلي.. كيف أهرب من قدري إلي قدري؟"
نظر لها نظرة فاحصة.. أحس أنها تاهت منه وذهبت بعيدًا جدًا..
أين ذهبت؟.. من أخذك مني؟
أنا لست لك حتى يأخذني منك أي أحد.. أرجوك.. لقد تأخرت لم يتعود أولادي أن أتغيب عنهم هكذا.

تتغيبين عنهم في عملك كثيرًا، صباحًا ومساءًا
انفجرت ضاحكة ومتعجبة:
حتى هذه عرفتها؟
أمسك بيدها:
أحبك وأعرف عنك كل شيء إلا أنك مازلتِ زوجة، أتنتظريه؟
لا.. حتى إن عاد لن أكون زوجة بمعنى الزوجية، لقد ألقيت بالدنيا كلها خلف ظهري، ما عدت أرغب فيها..
أنت هكذا.. راهبة..
أنا فقط مللت كل شيء، وأعيش لأولادي..
حين يتزوجون ستكونين وحدك..
معي الله فلن أكون وحدي أبدًا.. بإذنك.. يجب أن أذهب.
حملت حقيبة يدها الموضوعة على المنضدة ونهضت ذاهبة وهي تعلم أنه ينظر متعجبًا، متلهفًا، رافضًا لما تقول.. لكنه لن يتمكن أبدًا من تغيير القرار، انصرفت غير ناظرة وراءها.
استطعت استخراج أوراق ابني، وحصل على شهادة الإعفاء من التجنيد، وبدأ يستعد للسفر إلى إحدى دول الخليج؛ باجتهاده في عمله وخلقه الكريم رشحته الشركة التي يعمل بها هنا لشركة أجنبية أخرى بالدولة الخليجية، أصبحت أعيش وحدي مع ابنتي الصغرى التي تستعد لامتحان الثانوية العامة، تعلمت الحاسب الآلي وبدأت أحادث ابنتي في الخارج من خلال الشبكة العنكبوتية "الانترنت"، أنجبت ابنتي طفلها الثاني.. طفلة جميلة.. اسمها سلمى.. أجمل الأسماء التي نحبها كثيرًا ونتذكرها بكل

الخير.

دعتني ابنتي لزيارتهم في الخارج، تعللت بالعمل وبالابنة الصغرى ودراستها، سنوات وسنوات حتى لم أعد أعرف كم هي وأنا وحدي، نسيت من أنا، لم أعد أنظر إلى وجهي في المرآة.. نسيت ملامحي وأنوثتي، ونسيت قلبي ومشاعري الخاصة ولم أعد أذكر إلا أسماء أولادي وأحفادي.

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

لا يمكن أن يتواجد أي شيء في هذا الكون بغير روح وحياة وإحساس، ومن المؤكد أن هناك ينبوعًا فياضًا تتدفق منه كل الأنواع المختلفة من المخلوقات بطبائعها وأشكالها وألوانها ووظائفها، وللوجود كله ساعة محددة من عند الله سوف ينتهي فيها أو يتوقف كل شيء عندها، حين تدور الأرض حول نفسها وحول الشمس بما تحمله من ملايين الأحياء على ظهرها، وملايين الأموات في باطنها، ليستمر الكون في الحياة، بالرغم من كل الأحداث والكوارث التي تحدث فيه، الحياة دائمًا موجودة؛ فالشجرة كائن حي، الرمل كائن حي، شعاع الشمس كائن حي، يتناغم الكون كله منذ بدء الخليقة ويسير بنظام محكم أحكمه خالقه.

عاد ابني في زيارة سابقة، وتزوج من طبيبة، شقيقة أحد زملائه الذين تعرَّف عليهم في عمله بالخليج، وعاد هذه المرة لتضع زوجته مولودها الأول، طفلة جميلة أسماها "صفاء"..

زوجة ابني جميلة، عطوفة، حنونة، احتضنت طفلتها، قبلتها ثم أعطتها لي.. أخذتها في أحضاني، أذَّنت لها في أذنها اليمنى وأقمت الصلاة في أذنها اليسرى.. هكذا علمتني أمي.. ثقبنا أذنيها وألبستها قرطًا جميلاً اشريته لها.. كنا نعرف أنها فتاة من جهاز الموجات فوق الصوتية، أقام ابني وزوجته وطفلته معنا حتى ينتهي من إعداد شقته.

التحقت "هبة" بكلية الطب.. كانت فرحتي غامرة، سجدت لله شكرًا أنه لم يضيّع تعبي وشقائي.. أحسست بالزمن يجري من ورائي، والأيام تمضي مسرعة.

obeikandl.com

لا تبعد مرسى مطروح عن الإسكندرية كثيرًا، وهي مدينة الهدوء والجمال، تنام هادئة في أحضان البحر، شواطئها الممتدة والمتعددة ليس لها مثيل في جميع أنحاء العالم: شاطئ روميل القريب من منارة روميل، القائد الألماني الذي هزمه مونتجمري القائد الإنجليزي، في صحراء العلمين يرقد المئات من الجنود الذين قتلوا أثناء الحرب العالمية الثانية، شاطيء الغرام الذي تتواجد فيه صخرة كبيرة جلست عليها ليلى مراد وغنت إحدى أغنياتها الجميلة في فيلم "شاطيء الغرام"، اهتزت الصخرة بالصوت الماسي الأخاذ، طربت للنغم الجميل والآداء المتقن، أما شاطيء عجيبة فهو عجيب بحق، تنزل للشاطيء على سلم رملي حفر من أعلى لأسفل للوصول إلى الشاطيء المختبيء وسط صخور كبيرة مرتفعة ومنخفضة مياهه المتنوعة الألوان ما بين الأزرق والأخضر، يغريك بالسباحة فيه, لكن حذار من الصخور اللزجة المنزلقة تحت المياه، تنمو الأعشاب البحرية عليها فيكون صعبًا عليك الوقوف عليها أو الإمساك بها، المياه عميقة وإذا توغلت بداخلها ربما غرقت، لكنك إذا تأملت المكان شعرت بالهدوء والسكينة، أما شاطيء كليوباترا فهو في أطراف المدينة، كانت الملكة ـ التي يقال أنها فرعونية من أصل بطلمي ـ تنزل في تعرجات وطريق صعب لتستحم بالمياه الساقطة من أعلى عبر انزلاقها على الصخور، لكن كليوبترا بجمالها وذكائها أحبها أنطونيو القائد الروماني، واختارت الموت بسم الثعبان حين هزم أنطونيو، وعلمت أنهم سيأخذونها أسيرة إلي روما؛ ففضلت الموت على الأسر، خسرت المعركة والحبيب والحياة في وقت واحد. أما شاطيء الأُبَيِّضْ فهو من أجمل وأهدأ الشواطيء على الإطلاق؛ فرماله البيضاء

الناعمة ومياهه غير العميقة تجعلك تسترخي في هدوء، تسبح فيما خلق الله وصنعه فأبدع في صنعه، ومن شدة صفاء المياه قد ترى أسماكًا صغيرة تسبح مثلك وكأنها تشاركك في حب هذا المكان والاستمتاع به.

يعلم زوجي جيدًا أننا جميعًا نحب هذه المدينة الرائعة، ولم يفكر مرة واحدة في استدعائنا لقضاء أسبوع واحد في الصيف، ولم يفكر في إخطارنا بعنوانه، محانا تمامًا من ذاكرته وحياته ووجدانه وكأننا الخطيئة الوحيدة التي ارتكبها في حياته. حين ذهب سألني أولادي عنه قلت لهم: "ذهب في إجازة طويلة.. طويلة جدًا"

ذهبت إلى مرسى مطروح أبحث عنه، أعلم أنه تقاعد منذ مدة طويلة، لكنني ذهبت إلى فرع الشركة وطلبت مقابلة المدير، طلب لي كوبًا من الشاي الأخضر وجلس يتأملني.. سألته عن زوجي، الأستاذ "محمود حسين"، فرك كفيه في بعضهما البعض قائلاً:

سمعت هذا الاسم كثيرًا.. لكنه ليس موجودًا حاليًا في الشركة..

كان مدير الفرع أول افتتاحه، والآن هو على المعاش، أنا أريد عنوانه فقط وأكيد موجود عندكم كل بياناته، وأنا أعلم أنه موجود في هذه المدينة.

أكيد طبعًا يقيم هنا، لكن الحقيقة أنا لا أعرف العنوان.. الأستاذ "فؤاد" كان زميلاً له في الشركة، هو أصغر منه سنًا، كان مرؤوسًا له وأكيد يعرف عنوانه.

استدعى المدير، الأستاذ "فؤاد" الذي أعطاني عنوان محلات زوجي التي تقع في أطراف المدينة.

حين دخلت الدكان الكبير رأيت رجلاً يرتدي طاقية بيضاء على رأسه،

obeikandl.com

وقفطانًا أبيض عليه صديري مزركش بألوان ذهبية جميلة، رحَّب بي، وقدم لي مقعدًا لأستريح، حين سألته عن الأستاذ "محمود"، سألني:

أأنتِ قريبته؟

أنا زوجته، قدمت ظهرًا من الإسكندرية..

نظر الرجل لي متعجبًا، ينقل عينيه بيني وبين باب الدكان..

حضرتك زوجته.. فمن تلك التي معه؟

هل معه امرأة أخرى؟..

نعم.. حين رغبت في شراء المحلات هذه، بعد مشاهدتي للإعلان، قال لي الأستاذ "محمود" أنه يريد بيع شقته أيضًا، فهو مريض وجو المدينة لم يعد يناسبه ويرغب في الانتقال إلى مدينة أخرى، حين ذهبت مع زوجتي لمعاينة شقته رأيت امرأة أخرى، قدمها لي على أنها زوجته، تفاوضنا واشتريت المحلات والشقة.

والأستاذ "محمود"؟

لا أعرف، سلَّمني مفتاح الشقة خالية تمامًا، لكني متأكد من أنه ليس موجودًا بالمدينة.

ألم يترك لك عنوانه؟

لا.. وعلمت أيضًا أنه باع قطعة أرض كبيرة كان يمتلكها في الطرف الآخر من المدينة، كان ينوي أن يبني عليها فندقًا أو عمارة سكنية كبيرة.

شكرته وانصرفت...

"رحل زوجي مع المرأة الأخرى.. هل هي حقا زوجته؟ هل كان يعرف نساءًا أخريات؟.. هل هي شابة؟ وماذا أعطته ولم أمنحه أنا إياه؟.. هل

obeikandi.com

طمعت فيه أم هو الذي طمع فيها؟"

تصارعت الأفكار في رأسي، ماذا أقول لأولادي حين أعود؟..

فكرت في نشر إعلان يحمل اسمه وصورته علّه يعود، ابنتي الصغرى تسألني عنه مرارًا وتكرارًا:

"لماذا لا تبحثين عن أبي؟.. هل نسيناه كلنا؟ قلت لزوج أختي أن أبي يعيش في مرسى مطروح وأنه يحب الإقامة في هذه المدينة ويرفض العودة، واقتنع هو وأسرته أنها مسائل شخصية. أما أنا فماذا أقول لمن يريد أن يتقدم طالبًا يدي؟"..

أوشكت هي على التخرج وتريد عودة أبيها.. حاولت ولم أعرف عنوانه.. اختفى وكأنه يأبى العودة.. كدت أصرخ وأنا داخل الحافلة عائدة إلي الإسكندرية..

"ماذا يفعل بنا هذا الرجل؟ أنا إنسان.. لحم ودم، روح وأعصاب، دفعت حياتي وصحتي وشبابي لأولادي، لم يرسل إلينا بعنوانه ولا أي أموال لإعالة أولاده وكأننا جميعًا غير موجودين، ألقانا في بحر النسيان، لم يكن أولادي يطلبون مني أي شيء, لكني أعرف احتياجاتهم وأعطيهم دون أن يطلبوا."

خانتني دموعي، ظللت أبكي حتى نمت، صحوت على ضوء يتسلل من النافذة.. اقتربنا من الإسكندرية.

obeikandl.com

obeikandl.com

أحاول أن أحتفظ لنفسي بما تبقى لي منها، لو عادت الأيام إلى الوراء ما قبلت ما أنا فيه، كثيرًا ما أتمنى ترك العالم كله والعودة إلي حيث أتيت ربما وجدت هناك عالمًا أفضل من هذا العالم أجمل وأرحب، أرى النفاق والكذب في كل مكان؛ فتضيق بي الأماكن من حولي فأختنق، تبتسم الوجوه متسعة الأفواه فأشعر أنها تبتلعني، أسمع العالم يضحك فأتساءل: "لأي شيء يبتهج هكذا؟".. أدخل إلى أي فصل من فصول المدرسة فأجد الطالبات منهمكات في الأحاديث الضاحكة والمزاح.

في إحدى المرات وقفت قليلاً بالقرب من أحد الفصول وبابه مغلق؛ فسمعت أصوات هرج وصخب شديدين، فتحت الباب على غرة فإذا بإحدى التلميذات وقد لفت حول خصرها وشاح إحدى الزميلات المحجبات، ووقفت فوق طاولة المدرسة تهتز وترقص وتتمايل في جميع الاتجاهات، والباقيات يصفقن ويضربن بأكفهن على أسطح الأدراج، تتعالى الضحكات وينتشر المرح مع من ترقص وتغرورق العيون بالدموع من شدة الضحك, فهكذا نحن شعب يبكي حين يفرح وحين يحزن.

أحاول الهرب من واقعي إلي الخيال حتى وأنا أجتمع بالمدرسين والمدرسات لمناقشة أي موضوع يخص الدراسة، فقد أصبحت مديرة المدرسة وكبر أولادي وكبرت أيضًا مسئولياتي العملية، يتوارى حزني الداخلي خلف ابتساماتي ويسكن الصبر في قلبي ألمًا دفينًا قد يبدو في نظرة تائهة في عينيّ؛ فأنا دائمًا أنظر للمجهول ولا أعرف ما يختبئ لي في طيات الأيام، وحين أنام أرى نفسي أطير في الهواء، أحتضن الوهم

والأمنيات التي لا تتحقق أبدًا.

الأشواك تتزايد في جسدي، وكم مرة انتزعت إحداها فإذا بأشواك أخرى قوية، مدببة تندفع إلى جسدي بل إلى أعماقي وتستقر فيها ومحال أن تخرج إلا بموتي، ربما أيضًا في قبري سيتحلل جسدي وتبقى الأشواك متناثرة على الأرض مختلطة بالتراب وبالعظام البالية.

تم القبض على ثلاثة من المدرسين اتُهموا بالاشتراك في تنظيم إرهابي، ولم نعد نعرف عنهم أي شيء، كيف تعيش أسرهم وماذا نقول لأولادهم إذا سألوا: "أين آباؤنا؟".. ثم مات زوج أختي متأثرًا بإصابته بفيروس "سي" الذي أهلك الكبد، أجرى عملية لاستئصال المرارة، رفض إجراءها بالمنظار، نزف كثيرًا، نقلوا له دمًا ملوثًا بالفيروس، بدأوا التحقيق مع إحدى الشركات التي تستورد الدم من الخارج.

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

إذا ضربتك الأيام بكفيها بكل قوة ورفضت أن تمنحك أقل قدر من البهجة، وأحسست أن العالم كله ينظر إليك، منتظرًا أن تسقط، فهل هناك ما يدفعك للمقاومة وإذا قاومت فهل تقاوم الأيام أم تقاوم العالم؟!

كان "محمود حسين" قد باع كل شيء في مرسى مطروح بعد أن شاهد زوجته تذهب إلى المحلات التي يملكها وتختلط بالعمال وتمازح العملاء، تمايل وتتدلل في كلامها معهم، أصر على ترك المدينة الجميلة والرحيل إلى أخرى بعيدة. كان يقاوم المرض وقلبه يئن ويتوجع، يقعده عن العمل والحركة.. أما "فايزة" فمازالت في عز قوتها حتى لو بدأ الشباب يفارقها, لكنها قادرة على الحركة. والطاقة الكامنة فيها تشدها وتدفعها إلى خارج نفسها، أصبح ابنها يعيش معهما، طلباته أوامر، فاشل في دراسته، كل ما يهمه المال والسهر خارج البيت حتى ساعات متأخرة من الليل.

أصبحت "فايزة" تنام في غرفة منفصلة عن محمود، لا تطيق سعاله طوال الليل ولا أصوات أنفاسه المتلاحقة، أقنعته بوضع كل الأموال في البنك وتتصرف هي في كل شيء بلا أي مناقشة منه..

يتأمل نفسه عجوزًا في السبعين، مريضًا، متهالكًا، يسمع باب الشقة يغلق ويفتح، خاصة أثناء ليله الطويل غير الناعس، وحين يسأل لا يتلقى إلا نظرات الاستنكار والنفور، تضع له الطعام والدواء وتذهب، تتشاغل عنه لا يعرف بأي شيء، إذا تأخر ابنها في العودة إلى المنزل تلازم النافذة ولا تغلقها إلا حين يعود، تسبقه إلى المطبخ لتحضر الطعام له.

أرجعته الذاكرة المتبقية إلى الوراء، رأى "صفاء" تقف بملابس النوم تعد له طعام الإفطار، أسرع لارتداء ملابسه للذهاب إلي عمله، أعطته زجاجة

obeikandl.com

العطر ليتعطر بعد أن حلق ذقنه داعبها بقبلة على خدها، تسربت من بين يديه.. تذكّر أنهما كانا في العام الأول من الزواج، "أوحشتني كثيرًا يا "صفاء".. أنت والأولاد." أوحشوه بعد سنوات طويلة.. طويلة جدًا!!

سحبت فايزة كل الأرصدة من البنك، وتركت المنزل هي وابنها، تركته يعاني الجوع والمرض، بحث عنها، لم يعثر على أي أثر حتى عندما أبلغ البوليس عنها وعن ولدها، لم يعثروا عليهما.. كاد يموت من القهر والهم الكبير.

ebaikandl.com

obeikandl.com

تتلاحق الأزمات، تتزايد الاعتصامات، تنتشر الاحتجاجات، يتذمر الناس من كل شيء، البوليس يلاحق أي أحد، لا يهم من هو، المهم ماذا قال وفي أي موضوع تكلم، انخفض صوت بلدنا داخليًا وخارجيًا، أصبحنا نضع على وجوهنا أقنعة الحياة بلا حياة حتى لا يرانا أحد ونحن نحتضر.
كي تُمنع ثورة يجب أن تُوزع الثروات بين الناس بالعدل، وإذا توحش الغني وزادت ثروته حتى تكاد تعمي الأبصار ببذخها وبريقها وانعكاساتها على سلوكيات أصحابها، توقع ما لا تُحمد عقباه، وإذا استفحل فقر الفقير واشتدت حاجته وشخص ببصره فإذا القلة القليلة مستمتعة، مسترخية، هانئة بما لديها، فخورة بما أخذت من جيوب الفقراء ومن نصيبهم في الثروة، وإذا شاهد الفقير ابنه يتلوى من الجوع والبرد والمرض والألم، وتطلع إلى ما في يد غيره الذي له حق فيه أو في بعضه، فليس للجوع دين ولا عقيدة ولا سياسة، ولا مبدأ.. طول القهر واستمراره يلد التوحش والهمجية، ويضيع الإنسان الشريف في وسط هذه المعادلة التي هي في الأصل ليست عادلة ولا واضحة بالنسبة له، سيقول لك:
"اعطني خبزًا أولا ثم تحدث معي، فإذا شبعت.. أُنصت إليك".
فهل أصبحنا نعيش في وطن جائع؟ في كل يوم تنفجر فيه مشكلة والكبار في نعاس لا يستيقظون منه أبدًا، أو هم متناومون ولا أحد يعبأ بصياح أو استغاثة أو اعتصام، تغلي العقول والقلوب، تهترئ الأحشاء، ويجد الوصوليون والمنافقون مجالاً مناسبًا للفتنة يرتعون فيه.. أنظر حولي فأجد الغضب مرسومًا على الوجوه، متكلمًا في العيون، ناطقًا على الشفاه، وقد يصرخ الصمت في الحناجر.. تجمدت الدموع حتى تحولت إلى أحجار يخرج

منها الشرر، أخاف على بلدي، أن تحترق. منذ شهور قليلة أحلت للتقاعد.. أحاول أن أستريح، شيء غريب يتسلل إلى قلبي، قد يكون ترقبًا، لهفةً، قلقًا عظيمًا أو شعورًا بالخطر.. أحاول طمأنة نفسي..

عاد ابني من الخليج منذ عامين، افتتح صيدلية خاصة به، أنجب طفلاً آخر مازال يحبو، يأتي لزيارتي من وقت لآخر، حاول ترغيبي في العيش معهم, لكني لا أحب أن أثقل على أحد، انتقلت ابنتي "هدى" مع زوجها الدبلوماسي إلى دولة أوروبية أخرى، أما الصغرى "هبة" فهي مشغولة برسالة الماجيستير، وعندها طفل واحد، كثيرًا ما تتركه معي لتتفرغ للمذاكرة.

احتفلوا منذ يومين بعيد الشرطة، تعوَّدوا الاحتفال بأي عيد يخص فئة معينة قبلها أو بعدها بيومين، يصلي الرئيس صلاة العيد، ومرافقوه المهمون جدًا، وظهره إلى حائط المسجد.. "عبد الناصر" و"السادات" كانا يصليان في العيد خلف الإمام مباشرة وفي الصف الأول.. من أي شيء يخاف الرئيس وجهاز الأمن كله يحرسه؟!

ستكون هناك تظاهرة كبيرة يوم 25 يناير، نحن في العام 2011م، هكذا أعلنت بعض الجماعات، ربما لم يصدق النظام أو يتوقع هذا وربما ظنوا أنهم حفنة من الشباب لهم مطالب شبابية، البطالة انتشرت والخصخصة ساهمت في زيادتها، عشرات من الرجال في منتصف العمر يجلسون على المقاهي، لا يجدون ما يفعلونه سوى شرب الشاي والفرجة على (ماتشات) الكرة أو على الرائحات والغاديات، أو الحديث في الأمور التافهة، الشباب يملأون الطرقات، ربما اعتقد النظام أن هذا مجرد احتمال، تهديد، إشارات

وهمية إلى الاستيقاظ من السبات العميق الذي عشنا فيه، حركة شبابية واهية سنقضي عليها في أخر النهار..

المجموعات الكبيرة من الشباب بدأت في التوافد إلى ميدان التحرير بالعاصمة. جلست أمام التلفاز أتابع.. لم أتناول طعامي طوال اليوم، أطعمت حفيدي الصغير وحضر أبوه للعودة به إلى منزلهم.. أخذني النوم فنمت على الأريكة التي أجلس عليها، صحوت فجأة على صوت جرس الباب، نظرت إلى ساعة الحائط.. الساعة الآن السابعة صباحًا، زوجة ابني دخلت مسرعة، فزعة:

مصطفى في التظاهرة..

لماذا تركتيه يذهب؟.. أشاهد التلفاز منذ الأمس..

إذا شاهدت قنواتنا المحلية فلن تعرفي أي شيء..

فتحت زوجة ابني التلفاز الذي أغلقتُهُ قرب الفجر حين شعرت بالنعاس، قناة الجزيرة تتابع ما يحدث في القاهرة.. آلاف من البشر يتكدسون في الميدان.. يهتفون: "عيش، حرية، عدالة اجتماعية"..

حمل البعض اللافتات التي كتبوا عليها شعارات أخرى مختلفة بعضهم رسم على وجهه علم مصر.. سألت زوجة ابني:

هُم هكذا منذ الأمس؟

نعم..

ارتج قلبي؛ فمعظمهم شباب، بل جميعهم شباب حتى كبار السن المتواجدون معهم في الميدان استرجعوا شبابهم وحيويتهم، ننام نحن في المنازل متدثرين بالأغطية والملابس الثقيلة والمدفأة تعمل، وهم في العراء

obeikandl.com

ينامون ويصلون ويأكلون في الميدان.. كلهم جنبًا إلى جنب، الشاب والشيخ والطفل والرجل والمرأة، المسلم والمسيحي، يوقظ المسيحي المسلم لصلاة الفجر ويصب الماء على يديه للوضوء.. الكل قلب واحد وجسد واحد ونبض واحد وصوت واحد.. بكيت لشدة تأثري.. عشت طويلاً وحدي، لكني الآن بقلبي وسط الميدان أشعر بهم جميعًا أولادي، إخوتي، أهلي، نحن جميعًا مصريون، ذهبت للحج والعمرة في زيارة لابني حين كان يعمل في الخليج، عدت مبتهجة، عرفت الفرحة لأول مرة وأنا أقبِّل الحجر الأسود, وأنا أتذوق ماء زمزم لأول مرة.. عوضني الله بحب أولادي ونجاحهم وملأ حياتي بالأحفاد الصغار.. الآن ابني هناك.. مع زملائه وأصدقائه في الميدان، وكل وكالات الأنباء تتابع ما يحدث في مصر..

في يوم 28 يناير بدأ القتلى يتساقطون، وربما قبل ذلك، شباب وكبار ومراهقون، من يسقط ربما أصابته رصاصة واحدة في رأسه أو في قلبه.. ماذا يحدث؟ الاتصالات التليفونية مقطوعة سواء الأرضية أو المحمول. لا يعرف أحد كيف يطمئن على أهله وذويه، أقامت زوجة ابني معي هي وأولادها.. يحضر زوج ابنتي يوميًا للاطمئنان علينا.. انتشر الخوف والترقب في الشوارع والبيوت.. الضباب الكثيف يحيط بنا، ونحن ننتظر.. تحولت الهتافات إلى صرخات واللافتات تحمل كلمات:

"ارحل.. الشعب يريد إسقاط النظام.. لا توريث بعد اليوم"

كانت خطة التوريث بقيادة السيدة الأولى تجري على قدم وساق، لا أحد يقول لا، الكل يرتب ويعمل وينتظر المكافأة.. من قال "لا" اضطهدوه ولفقوا له التهم وزجوا به في المعتقل أو أذابوه في الجير الحي، كان النظام كله

يتصرف وكأن البلد والشعب ملك له، ولا أحد يملك الاعتراض.

وقفت حفيدتي الصغيرة "صفاء" ذات الأعوام الثلاثة تشاهد التلفاز وتهتف مثل المتظاهرين "الشعب يريد إسقاط النظام".

يظهر الرئيس في التلفاز ويلقي خطابًا لا معنى له.. مرة، مرتان.. لم يعد أحد يصدق ما يقول، ضاعت الثقة والمظاهرات مستمرة ليس في القاهرة فقط، بل وفي جميع أنحاء الجمهورية، أصلي لله وأدعو أن يحفظ كل الشباب، أشعر بقلوب الآباء والأمهات تنفطر خوفًا على الأبناء، الكل ينتظر..

وأخيرًا، نعم أخيرًا، تنحى في 11 فبراير. عمت الفرحة كل الأمة، يرقص الناس في الشوارع، ملوحين بأعلام مصر، بعض الجيران تتدلى الأعلام من شرفاتهم، لم يفرح هذا الشعب من قبل بمثل هذه الفرحة إلا يوم العبور في 6 أكتوبر 1973م.

obeikandl.com

obeikandl.com

سمعنا طرقًا على الباب، سألت زوجة ابني من داخل الشقة:

- من يطرق الباب بيديه وجرس الباب موجود؟

عاد الطرق مرة أخرى واهنًا، متقطعًا.. قمت أنا لأرى من يطرق بابنا هكذا. شاهدت رجلاً مسنًا مستندًا على الحائط المجاور لباب الشقة، لم أتبين ملامحه؛ سألته:

من أنت.. وماذا تريد؟

أريد الأستاذة "صفاء"..

أنا الأستاذة "صفاء"، فماذا تريد مني؟

أنا "محمود" يا "صفاء"..

سقط مغشيًا عليه، صرخت أنادي زوجة ابني لتسنده معي حتى ندخله ليستريح على أحد المقاعد، أغلقت باب الشقة..

نظرت إليه، ملابسه الرثة وشعره المشعث هيئته المزرية؛ زوجة ابني تراه لأول مرة، أخبرها ابني أن أباه اختفى منذ سنوات طويلة، بحثنا عنه دون جدوى..

أحضرت له بعض الطعام والفاكهة، وضعت الأطباق أمامه، أزاحها بعيدًا. أشفقت عليه، سنوات طويلة مرت وكأنها بالأمس، يبدو عليه المرض والإرهاق. حاول أن يتحدث، صوته الواهن، كلماته المتقطعة، لم أفهم أي شيء..

تذكرتنا أخيرًا؟.. كم سنة مرت منذ أن تركتنا؟

سامحيني.. لم أقدر على العيش غريبًا في بيتي..

لم تكن غريبًا.. أنت الذي تباعدت عنا، صنعت لنفسك عالمًا بعيدًا

تعيش فيه وحدك.

أنت والأولاد في جانب، وأنا وحدي في جانب.

حاولنا اجتذابك كثيرًا لتكون معنا قلبًا وقالبًا، لكنك كنت الحاضر الغائب.

أرجوكِ.. لا داعي لنبش الماضي.. أين الأولاد؟.. أشتاق إليهم كثيرًا..

أتظنهم مازالوا صغارًا؟.. كل شيء تغير..

آه.. والتظاهرات أيضًا تطالب بالتغيير..

تناول طعامه.. حممته بنفسي؛ فحالته المزرية ومرضه الشديد أضعفاه كثيرًا؛ فهو يقترب من السابعة والسبعين، أضاع عمره هباءً في هباء، حكى لي كل ما حدث له وكيف أنه خسر كل شيء.. تركته "فايزة" بلا طعام ولا دواء ولا مال، هربت ولا يعلم أين، هي وابنها، أتى وحده من أقصى الجنوب، اقترض ثمن تذاكر السفر من الجيران بعد أن ترك لهم الشقة بما فيها، لم يعد يهتم بأي شيء، حتى ذاكرته اضمحلت، ينام ساعات طويلة.. عاودته الأزمة القلبية، نصح الطبيب بعلاجه في المنزل فالأزمة بسيطة بسبب مجهود السفر.

عادت الاتصالات التليفونية والشبكة العنكبوتية، حدثتنا ابنتي من لندن، فزعة تسأل عنا وعما يحدث في مصر.

obeikandl.com

obeikandl.com

الأخلاق هي قوانين للسلوك الإنساني تنمو وتتطور بما هو ملائم لحياة الجماعة، وهي متغيرة بتغير طبيعة الجماعة وظروفها، فالنزعة الفردية تكون منافية للأخلاق إذا كان الشعب محاصرًا بالعدو، والأب إذا تخلى عن ابنه وهو في أشد الاحتياج إليه أيكون هذا من الأخلاق؟ والشعب إذا طالب بالعدالة الاجتماعية وبالحرية وبلقمة العيش، هل يُطلق عليه الرصاص؟

ضاعت ذاكرة الوطن سنوات طويلة، أدخلونا في التيه وتركونا، أوصدوا دوننا أبواب العلم والبحث والصدق والأمانة والضمير، تفكك العقل وضاعت مدركاتنا الحسية وأفكارنا الراقية المتميزة ودارت بنا المتاهة الكبيرة حتى لا ندري من نكون ولا من هم حولنا وأمامنا وخلفنا.

توالت الأحداث بسرعة متلاحقة، مشتعلة، فوجيء المتظاهرون المسالمون، الذين لا يحمل أي منهم مطواة، مسدس، بندقية ولا حتى عصاة صغيرة أو قطعة من الحجارة، بالجمال والخيل يمتطيها رجال مسلحون بالعصي والبنادق، هاجموا المتظاهرين واشتد الهرج والكر والفر، وكأننا عدنا للعصور الوسطى، شاهدنا الموقعة في التلفاز في أخبار المساء على "الجزيرة" و"العربية" والـ "بي بي سي"، العالم كله ينظرنا ويرصد كل ما يحدث، أصبحت أيضًا أتابع القنوات الفرنسية والألمانية والـ "سي إن إن"، كل القنوات لا حديث لها إلا عنّا، ونحن لا نعلم شيء عن أولادنا المرابطين في الميدان.

أقوم على خدمة المريض العائد بعد غيبته الطويلة، الذي أنسانا نفسه ونسينا وهو يعيش بيننا، المنشغل بالضباب العالق في ذاكرته, لكن ذاكرتنا محته وألقته في غياهب الماضي، نسيناه حتى وهو في فراشه الوثير

النظيف، لا يشعر بنا إلا حين نقدم له الطعام والدواء، وكثيرًا ما يسألني عن "فايزة"؛ مازالت تعلق بذاكرته.. هل عاد إلينا بعد أن ذهبت رغباته وشهواته أو هي التي تخلت عنه بعد طول اعتصار؟

شددت الحكومة كل القيود على الشعب حتى على العقول، لم يجد الناس مفرًا من الثورة.. الآن أصبح الجميع يفكر، يعمل عقله، يرفض الانصياع للقهر والظلم، المطالب كثيرة, لكن أيضًا حلكة الليل شديدة، وحين بدأ النور في الانتشار تشبثنا به، اغتسلنا بندى الفجر ونزعنا عن أرواحنا مرارة الاستسلام، ولن يعود الشعب المصري كما كان من قبل أبدًا.

اقترحت عليَّ زوجة ابني أن تذهب إلى القاهرة للبحث عن زوجها- ابني الوحيد- حاولت طمأنتها:

- لننتظر يومًا أو يومين لعله يعود

أطمئنها وأنا قلبي يئن والحيرة تقتلني.. شيء ما يهزني، أقوم على خدمة المريض وأحفادي، وزوجة ابني تساعدني بما يسمح به وقتها وعملها، لكني أعجز عن التفكير، أرهقني السهر، أروح وأجيء بلا هدف، فقط أريد أن أطمئن على ابني، وعلى كل شباب التحرير، بل وعلى كل أبناء مصر، ولا أعرف إلا أني مصرية، رغبت في الذهاب إلي الميدان والجلوس معهم, بل تلقي زجاجات المولوتوف نيابة عنهم، كانت تلقى عليهم من أعلى المباني المحيطة بالميدان، لو أتلقاها في صدري بدلاً منهم، أشعر أنهم جميعًا أولادي. المجلس العسكري يدير البلاد، بدأت الطمأنينة تظهر على الوجوه, لكن القلق والخوف رابضان في العيون، سمعنا عن شهداء، مصابين، بل فقد البعض البصر.

رحلت زوجة ابني تبحث عن "مصطفى"، تهاتفني يوميًا عدة مرات، ولم تصل إلي أي شيء بعد.

obeikandl.com

obeikandl.com

رياح الخوف تهب من حولي، في اليوم أربع وعشرين ساعة، ثلاثين يومًا، ننتظر.. لحظات الانتظار تمتص الهواء من حولي فأختنق، أقاوم عبراتي، لكن الظنون تتقاذفني، زوجة ابني تذهب إلى القاهرة وتعود، تذهب وتعود، لم تعرف أي خبر عن زوجها، وأنا أتابع كل الأخبار على كل القنوات، كان إعلامنا يكذب علينا ويعرض علينا الأكاذيب حتى أقالوا وزير الإعلام، نعلم أن الكثيرين سقطوا شهداء، الألم يعتصرني حزنًا عليهم. في الليلة الواحدة والثلاثين.. دق جرس الباب، كنت أعد طعام العشاء لأحفادي، استقبلت اثنين من أصدقاء ابني، أعرفهم جيدًا؛ فقد كانوا زملاء الدراسة في الكلية، وجوههم الشاحبة من كثرة السهر، نظراتهم إليّ دفعت قلبي إلى التوجس والخفقان الشديدين.. نظراتي المستفسرة، الكلمات المتعثرة على شفاههم.. استبد بي الخوف، نظر أحدهم إليّ.. الدموع تنطق في عيونهم والشفقة في رعشة أصواتهم..

أمي.. تماسكي..

كنتم مع "مصطفى" في الميدان؟

نعم..

حاولت أن أتخيل أنه جريح أو مصاب يعالج في إحدى المستشفيات، توقعت أن يطلبوا مني الذهاب معهم إلى المستشفى لرؤيته..

البقاء لله يا أمي.. احتسبيه عند الله في الجنة بإذن الله.

توقفت الصرخة في حنجرتي، تجمدت في مكاني، أمسك أحدهم بيدي وأجلسني على المقعد المجاور.

أمي.. تماسكي.. كلنا أولادك..

obeikandi.com

ابني.. "مصطفى" مات؟!
لا تقولي مات.. بل تذكَّري أنه دفع حياته فداءً لهذا الوطن..
صرخت صرخة مدوية:
آآآه.. يا ابن عمري.. لمن أعيش، لماذا لم أذهب أنا بدلاً منك؟
انفجرت دموعي..
اللهم أرني ثأري فيهم، القتلة، اللصوص.. كيف استشهد ابني؟
كنا جميعًا في مجموعة واحدة، لكننا حين وقفنا للصلاة لم نجده بيننا، ظننا أنه سيأتي أو أن الجموع دفعته بعيدًا عنا، لكنه لم يأت، بحثنا عنه كثيرًا بلا فائدة.
رأيت القناصة في إحدى شرفات مبنى وزارة الداخلية وعلى السطح، رأيناهم في التلفاز يصوبون على الثوار.
كنا نتمنى أن نكون معه.
عنده زوجة وأبناء صغار.. هذا ابنه الصغير الذي يحبو أمامكم..
كلنا عندنا زوجات وأبناء، تجملي بالصبر.
آه.. عمري كله صابرة.. أتحمل، أعطي، ذرفت من الدمع ما قرح العين وألهب البدن، سهرت وعملت وكافحت لأربي أولادي، رأيتهم أمامي يكبرون، شاهدت انتصار الحياة في العيون البريئة، كنت أحيا من خلال أولادي، أيذهب ابني ويتركني؟ هذا القلب الذي اتسع للعالم كله حين أحس بنبضاتكم داخل شراييني، أنا الأم التي أحبتكم وتفديكم بالنفس والروح..التهموكم بالرصاص، قتلوكم بدمائهم الباردة..
وقفت أمام صورة ابني أحدثه:

"احك لي عن كل شيء روَّعك.. قل لي بربك ما أوجعك.. العالم كله ينظرك، يا قرة العين قل لي بربك ما أوجعك، ماذا في كل حلم أفزعك"..

انصرف أصدقاء ابني، جلست وزوجته وأولاده، دموعنا لا تجف، نعلم أنه في عالم رائع طاهر جميل، وأنه عند الله، وأنه مع الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، نعلم مدى تضحيته وشجاعته، ولكن ألا يُحاسب القتلة؟

obeikandl.com

obeikandl.com

تاهت الشمس فلم تتوسط كبد السماء، وانزعجت كل المخلوقات فقد أظلمت الدنيا، وأنا حياتي أظلمت منذ زمن بعيد، انكسر قلبي مرة فتماسكت، لكنه حين انكسر ثانية لم يتبق منه أي شيء ولا حتى خفقة واحدة.. لم أعد أشعر بأي شيء إلا بأن كل الأشواك تنغرس في جسدي، قلبي ينزف، روحي تستغيث، أحشائي تتمزق، الأولاد الصغار، أحفادي ينظرون إليّ ولا يفهمون ماذا يحدث..

أقبلت الحفيدة "صفاء" تسألني:

جدتي.. لماذا تبكين؟

ازداد نحيبي، اختنق صوتي.. حاولت زوجة ابني التخفيف عني, لكنها هي الأحوج للمواساة؛ الزوج الشاب ذو الخمسة وثلاثين عامًا قد رحل، كان نعم الزوج ونعم الابن، كان هو ابني وأخي وأبي وكل شيء.. نظرت لأحفادي.. ماذا أقول لهم؟ هل سيفهمون أن أباهم رحل؟

كان علينا أن نذهب لاستلام جثمانه ودفنه، ذهبت زوجة ابني مع "هدى" وزوجها.. أقمنا العزاء، والعائد المريض في فراشه لا يدري شيئًا.. الزهايمر استبد به وقضى تمامًا على ذاكرته، ينظر إلينا ولا يعرفنا.. حتى أنا لم أعد أذكره مع أني أطعمه بيدي كل يوم وأسقيه الدواء.

الكل يطالب بمحاكمة رؤوس الفساد وبإعادة الأموال المنهوبة، الشعب الذي سُرقت أمواله ونُهبت عبر الصفقات المشبوهة والخصخصة والمتاجرة بأقوات الناس، وبالأراضي والصفقة الكبيرة، ببيع الغاز لإسرائيل، يجب أن نستعيد كل ما سُلب منا.. الحق يجب أن يعود، أرواح الشهداء لم تُزهق ليضيع كل شيء، بل ليعود كل شيء.

أشواكي تدميني.. تشتد حدَّة وعمقًا، قلبي مازال ينزف، دمائي تسيل حتى فاضت في كل الشوارع والميادين، أنتظر المحاكمة، أجلس أمام صورة ابني ساعات طويلة.. قال لي:

لا تخافي يا أمي ولا تحزني.. أنا بخير وفي أحسن حال..

مازالت ابتسامته الرائعة على شفتيه، وجهه ازداد بياضًا، عيناه لامعتان بالحب والرحمة، يسألني أن أرضى عنه وأن أدعو له..

بل أنا التي أسألك الدعاء.

أتمنى أن يُقتل كل من قتل متظاهرًا نطق بالحق ونادى بالعدل والحرية..

أتمنى القضاء على كل الفاسدين، أنظر إلى المستقبل وأنا بلا حياة, لكنني أفكر في أحفادي، في أولاد مصر:

"طهّروا نهر النيل، عمّروا سيناء، ازرعوا الأرض، اقضوا على العشوائيات.. علّموا أطفال الشوارع وأوجدوا لهم عملاً.. عالجوا الأطفال المصابين بالسرطان.. ابنوا المصانع، حدِّثوا التعليم، انثروا الحب والرحمة والعدل والحق، فيضان من النور والبهجة.. اجعلوا شعب مصر يبتسم بعد أن استبد به الحزن سنوات وسنوات."

لكني، أنا، لن تغمرني الفرحة إلا بعد المحاكمة، والحكم، ومازلت أضع صورة ابني أمامي، وأنتظر من ينتزع الأشواك عن جسدي وقلبي.

تمت

1/5/2012

" فقرات وكلمات من كتاب العمر أكتبها حين أتوه داخل عمق الحلم.. لكنني دائمًا أعود.. برجاء، ونداء ودعاء ".

نادية البرعي

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

رقم الايداع / 21093/ 2013 ط1

الترقيم الدولى / ا - 19 - 5311 - 977 - 978

ليليث للنشر
والتوزيع